مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ـ المجلد ١٣ ( العدد١ ) ١٤١١هـ ـ ١٩٩١ م

# حيوية الطبيعة وأبعاد الصورة الفنية

د. مريم البغدادي

جامعة الملك عبد العزيز

جدة

يطلق لفظ ( الطبيعة ) في الأصل على جملة الموجودات المادية من كائنات وجمادات وكل مايحيط بالانسان من مخلوقات في الوجودين ، الأرضي والسماوي . ولكل جزء من هذه الطبيعة أو الوجود قوانين تحكمه ، فمنها ماتحكمه الحركة ، ومنهامايحكمه السكون الظاهري ، وقوانين الحركة أو السكون ، سواء أكانت طبعية أو تسخيرية ، تشير الى صنع حكيم جعل لهذا الكون كله نظاما يتسم بالكمال والجمال .

وقد كثر تساؤل الانسان منذ أقدم الأزمنة عن سر هذه الحياة ، وهذه الطبيعة وحاول جاهدا التعرف عليها وعلى ماحوله ، وسبر أغوارها جميعا ، لمعرفة كنهها وفك ألغاز التفاوت والمفارقة والمشابهة بين أجزائها العديدة ، وقد أيقن ـ خلال بحثه الطويل ـ ان الحياة بشكل عام ، وما يحيط به ، هو بشكل خاص ، لغز محير لم ينشأ بصورة عفوية ، وانما هو كون نشأ بقدرة معينة سماها آلهة أحيانا ، وأرواحاً أحيانا أخرى ، وان لم يدرك كنهها ادراكا دقيقا محددا . ورغم تواتر الرسالات السماوية منذ آدم ـ والتعليمات الروحية التي حملها الرسل الى البشر ، فحملوا معها كثيرا من المعارف المتعلقة بالطبيعة وأسرارها ، الا أن الانسان كان ، كلما بعد عهده عن زمن التبليغ ، كلما غامت لديه هذه المعارف ، وان بقي بعضها راسخا في لاوعيه ، وفي ذاكرة الجماعة فظهر على شكل فكر حضاري واجتهاد روحي يحاولان فلسفة وشرح ماغمض على الانسان فهمه من أمور تتعلق بهذا الوجود وهذه الطبيعة . ولقد لعب الجانب الروحي دورا مهما في تكوين الفكر الحضاري القديم ، اذ هو عامل أساس ومظهر من مظاهر النشاط الانساني المنبثق من شعوره ازاء بيئته ، وتفاعله معها واستجابته لدعوات دينية واصلاحية عديدة .

وللنشاط الروحي جانبان ، أحدهما يعتمد الأساس الديني ، والآخر الأساس الاعتقادي . والديني يشير الى مايتدين به الانسان وما يعبد به الله من اقرار باللسان وعمل بالجوارح والأركان ؛ أي خضوع العابد وطاعته التامة وانقياده للمعبود. ويظهر ذلك في العقلية والسلوك والعبادة ، بينما يشير الأساس الاعتقادي الى ماعقد عليه القلب والضمير دون العمل أحيانا ، كالاعتقاد بأمور وهمية وتصورات تمتزج بالعقل ، مثل الايمان بتفوق قوة من القوى في البيئة الطبيعية . وقد يخلط بين الدين والاعتقاد من حيث الاستخدام ، عند الكلام على العبادة والديانة لأمة من الأمم ، سواء في العالم القديم أو المعاصر ، الا أن كلا الاصطلاحين يتضمن

الانتعاش الروحي ويقود اليه . ولعل هذه الروحانية قد أمدت ولا زالت تمد الفنان بأدوات ابداعه ، وتساهم في تكوين صوره ، ولهذا حاول الفنان والأديب في العالم القديم استيحاء هذا الجانب من فكره الحضاري ، فقدم فيضا رائعا من عبقريته الأدبية الموحية .

ولما ان كان الفكر الحضاري القديم ينطلق - أحيانا كثيرة - من تصور اسطوري للعلاقة بين الانسان وبيئته فقد انطبع الابداع القديم بهذا التصور ، سواء أكان ملحمة أم قصة أم شعرا غنائيا . ولعله يمكننا القول إن التطور الحضاري لم يكن يسمح بوجود وسيلة أخرى - غير الاسطورة للتعبير عما يشغل ذهن الانسان حيال الطبيعة والبيئة التي تحيطه - فهي تمثل مرحلة من مراحل تطور العقل الانساني الذي انصرف الى السيطرة على الطبيعة ) بوسائله الحضارية المتوفرة آنذاك . ويرى ( كاسبرر ) أن الاسطورة تقوم ( في الجوهر على أساس من رغبة حماسية تدفع الأفراد الى الشعور بوجود هوية بينهم وبين المجتمع والطبيعة ) (١) .

وما دام المجتمع العربي يمثل شريحة حضارية مهمة في هذا العالم القديم فقد خضع للتصور نفسه في ابداعه الأدبي الذي ضم أطرافا شائقة وطريفة من جمال طفولته العقلية ومعتقداته البدائية في أصولها البعيدة . ولعل هذا التصور يشير الى فلسفة روحية تنطلق من المحيط المادي ، وبمقتضى هذه الفلسفة تشخص ( عناصر الكون من هواء ونار وماء ، أو تتحول الى كائنات حية تختفي وراءها مخلوقات خاصة . وعلى هذا النحو ، وجد ازاء كل ظاهرة طبيعية - ابتداء من الشمس حتى أصغر مجرى ماء - كائن روحي معين (٢) .

ولقد لعب الخيال الاسطوري عند العرب دورا مهما في تكوين الفكر الحضاري لهؤلاء ؛ ذلك الفكر الذي يشير الى مظهر عقلي شديد التعقيد بالنسبة لهذا الجانب من حياتهم الفكرية التي تضم ملامح ثقافية تعليلية تحاول تفسير الظواهر الغامضة في الحياة من حولهم تفسيرا يتفق وعقلية العصر الجاهلي الذي يتسم بطوابع متشابهة في أركان العالم العربي القديم . وكثير من هذه الطوابع يلعب فيه العنصر الاعتقادي والديني دورا ما حاول الأديب الجاهلي رصده فيما يبدع . والأديب في رصده هذا يصدر عن أفكار معينة ترسم ملامح الوجدان الجماعي ازاء مفاهيم روحية محددة . ومن تلك المفاهيم ، مايتعلق بما في الفضاء الخارجي من الأجرام السماوية كالشمس والقمر والنجوم ، وما يتعلق بالأنواء وحالة الطقس وما تضمه من مطر ورعود وصواعق وغيرها مما له علاقة بالعالم العلوي ، ومن ثم ارتباطه بالعالم الأرضي .

والحركة والحياة والحيوية هي المحور الذي يدور عليه الاعتقاد بقوى الطبيعة في العالم العربي القديم . وذلك نابع من تصور قديم مفاده أن كل مظهر من مظاهر الطبيعة ، سواء أكان سماويا أم أرضيا يمثل روحا معينة تكمن فيه ، ومن هنا جاءت عبادة هذه القوى الى جانب عبادة بعض الكواكب والنجوم كالشمس والقمر والزهرة وغيرها من الأجرام السماوية والأرواح وأدنى من ذلك . (٣)

ولعل الشمس تأتي في مقدمة الأجرام التي استحوذت على اهتمام العرب ولفتت نظرهم ، بمظهرها الأخاذ أولا ، ولأثرها في الحياة ثانيا . ولم يكن هؤلاء يدرون أن هذا المظهر الأخاذ والنور المبهر للأبصار

انما هو غازات تغطي سطح الشمس المسمى بالطبقة الضوئية " Photosphere " تلك التي تتألف من طبقة الاكليل" Corona " الخارجية والطبقة الداخلية الملونة " Cromosphere " ولما ان كانت الشمس مصدر الضوء لكل النجوم والكواكب المتصلة بها ، ولما ان كانت مصدر الطاقة والحياة أيضا ، عبدها هؤلاء ( لأنهم وجدوا مرد كل شيء في هذه الحياة اليها ) (٤). بعد ملاحظات عديدة ومراقبة مستمرة وصلت بهم الى قناعة ان للشمس فاعلية وحيوية يفترض أن تكونا صادرتين عن روح حية ، تفيض بالخير ، وما دام هذا الخير يتعلق بالحياة وخصوبة الأرض ،فانه لابد أن يكون صادرا عن حيوية أنوثة تتمتع بقدرة خارقة تفوق حيوية البشر ولذا عبدوها وأطلقوا عليها اسم ( الالهة – الشمس ) ، كما يقول عتيبة بن الحرث اليربوعي :

تروّحنا من اللعباء عصرا
فأعجلنا الالاهة أن تؤوبا (٥)

وتشير الروايات المتعلقة بالشمس الى فاعليتها وحيويتها وصفاتها الانسانية من حيث تمتعها بالحركة والحديث والغضب والرضا ، بالاضافة الى القوى التي تتمتع بها ، وهي قوى خارقة تتدخل في فعاليات الحياة بشكل مباشر . ونتساءل من أين جاءهم هذا التصور ؟؟ لقد زعم العرب أو توهموا أن الشمس ملك من الملائكة ( لها نفس وعقل وهي أصل نور القمر والكواكب – ولذا فهي تستحق – .. التعظيم والسجود والدعاء . ومن شريعتهم في عبادتها أنهم اتخذوا لها صنما بيده جوهرة على لون النار ... ويأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعونه ويستشفعون به ) .

ويزيد الشهرستاني القول بأنه (كان صنف من العرب يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله فكانوا يعبدونها لتشفع لهم الى الله )(٦)، ثم يورد اعتقادهم – والصائبة منهم خاصة – بأن الكواكب هياكل الملائكة وسكنها ، فالروحانيون – وهم الملائكة – متخصصون ( بالهياكل العلوية مثل زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد والقمر، وهذه السيارات كالأبدان والأشخاص بالنسبة اليها . وكل مايحدث من الموجودات ويعرض من الحوادث فكلها مسببات هذه الأسباب وآثار هذه العلويات ) . وبتفكيك هذه النصوص نجد أن إيمان هؤلاء بأن الشمس أصل نور القمر والكواكب مطابق للنظرة العلمية الحديثة التي أوردناها سابقا وأن مرد كل شيء في الحياة اليها بمافيها الطاقة . واذن ، فان الشمس مصدر للحيوية والفاعلية مادامت هيكلا لملك من الملائكة – حسب زعمهم – ومن هنا ، فانها لابد أن تؤثر وتفعل وتنفعل ، كما أنها تحمل صفات الأنثى كالملائكة . وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله تعالى " ويجعلون لله البنات سبحانه " فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون " . وقد كانوا يصورونها في محاريبهم على شكل امرأة عارية جميلة ، ويهدون اليها القلائد والشنوف والثياب ، وكلها أدوات زينة تخص المرأة عادة . وذكر السهيلي " ان العرب الجاهليين كانوا يجعلون آلهتهم إناثا كاللات والعزى ومناة – وهي تمثل الملائكة – لاعتقادهم الخبيث في الملائكة أنها بنات الله " (٧). ونفهم من النص أن الملائكة تحل في الأصنام ،واللات صنم الشمس كما أن العزى صنم الزهرة ، وهكذا وقد وردت بصيغة المؤنث – جريا وراء اعتقادهم لدحضه – في قوله تعالى

" أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذن قسمة ضيزى " (٨).

وحيوية الشمس وفاعليتها تظهر في خصوبة الأرض وفي أثر ضيائها . يقول قيس بن الخطيم :

قضى لها الله حين يخلقها
الخالق ألا يكنها سَكَدُ

ثم شبه بها المرأة مبينا أنها مصدر الضوء ، فيقول بعد ذلك مباشرة :

حوراء جيداء يستضاء بها
كأنها خوط بانة قصف

ويقول – وقد سماها كالعرب عمرة :

لعمرة ، اذ قلبه معجب
فأني بعمرة أنى بها
ليال لنا ودها منصب
اذا الشول لطت بأذنابها
وراحت حدابير حدب الظهور
مجتلما لحم أصلابها
كأن القرنفل والزنجبيل
وزاكي العبير بجلبابها
نمتها اليهود الى قبة
دوين السماء بمحرابها

وهو هنا يربط بين خصب الديار وحلول الجفاف وهزال النوق نتيجة ذلك ، وبين رحيلها ، وان جسّدها بامرأة هي عمرة ، وقد جعلوها ملكة السماء وزوجة القمر – ود (٩)، ولهذا كان ذكرها يأتي مقرونا بالقمر أحيانا . تقول الخنساء في رثاء صخر :

والشمس كاسفة لمهلكه
وما اتسق القمر

ويقول أوس بن حجر في الرثاء :

ألم تكسف الشمس والبدر والكواكب للجبل الواجب
لفقد فضالة لاتستوى الفقود ، ولا خلة الذاهب

ثم قرنت به أيضا في حالة ايجابها فيقول عنترة متغزلا :

أشارت اليها الشمس عند غروبها
تقول اذا اسود الدجى فاطلعي بعدى

وقال لها البدر المنير : ألا اسفري
فانك مثلي في الكمال وفي السعد

حيوية تظهر في ضوئها وأثرها في الخصوبة ، ثم في كلامها ومحاوراتها . هي اذن فاعلة ، تتجاوب مع الحياة تجاوب الحياة معها ، وهي تضحك أيضا وتضاحك ، يقول الاعشى في وصف روضة :

يضاحك الشمس منها كوكب شرق
مؤزر بعميم النبت مكتهل

ويقول المهلهل في رثاء أخيه :

لما نعى الناعي كليبا أظلمت
شمس النهار فما تريد طلوعا (١٠)

وهي ذات رداء كما يقول طرفة ، حين وصف وجه حبيبته :

ووجه كأن الشمس حلت رداءها
عليه ، نقي اللون لم يتخدد

ثم تظهر حيويتها عنده في تبديلها ما سقط من أسنان المحبوبة بقوله :

بادن ، تجلو اذا ابتسمت
عن شتيت ، كأقاح الرمل غرّ
بدلته الشمس من منبته
بردا أبيض ، مصقول الأشرْ

ثم تبدو فاعليتها عنده حينما تسقي ثغر الحبيبة وأسنانها شرابا ضوئيا يضفي جمالا عليها ، فيقول :

وتبسم عن ألمى كأن منورا
تخلل حر الرمل دعص له ندى
سقته اياة الشمس الا لثاته
أسفّ ،ولم تكدم عليه ،باثمد

ويذكر الألوسي في هذا الصدد أن الغلام منهم كان ( اذا سقطت له سن أخذها بين السبابة والابهام واستقبل الشمس اذا طلعت وقذف بها وقال : ياشمس

ابدليني بسن منها ولتجر في ظلمتها
اياتك أو تقول اياؤك ، وهما جميعا
شعاع الشمس ) . ويقول آخر :
كسته الشمس لونا من سناها
فلاح كأنه برق الغمام
وقال ثالث :
بذى أشرب عذب المذاق تفرد ت
به الشمس حتى عاد أبيض ناصعا
وقال الأعشى يمدح ، مصورا الشمس امرأة تلقي القناع عن وجهها تلبية لنداء ممدوحه وطاعة :
فتى لو ينادى الشمس ألقت قناعها
أو القمر الساري لألقى المقالدا
وهم جميعا يؤكدون على هذه الفاعلية والحيوية للشمس ، تكسو بهما الضوء من شاءت ، وتبدل أسنان من شاءت وتكلم من شاءت ، وتتفاعل مع الحياة تفاعلا كبيرا . ولقد كان بعضهم يؤمن بأن هذه الفاعلية مسخرة من الله سبحانه ، يقول شاعرهم :
ثم يجلو الظلام رب رحيم
بمهاة شعاعها منشور (١١)
ويؤكد هذا التسخير ماورد عن النبي عليه السلام اذ يقول : " والذي نفسي بيده ، ماطلعت الشمس حتى ينخسها سبعون ألف ملك يقال لها اطلعي ، فتقول : لا أطلع على قوم يعبدونني من دون الله فيأتيها ملكان حتى تستقل لضياء العباد ، فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن الطلوع فتطلع على قرنيه فيحرقه الله تحتها ، وما غربت الا خرت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن سجودها فتغرب على قرنيه فيحرقه الله تحتها ) ،والحديث يشير الى ملامح منها أن الشمس تتكلم وتخاطب ،وتسجد ، ويعترض طلوعها شيطان ما ،وهي ملامح تشير أيضا الى حيويتها كما نلقي ضوء اعلى فهمنا لطبيعة فكر هؤلاء العرب القدامى بالنسبة لمصدر حيوية الشمس وطبيعتها ،فقد ورد عن أمية بن أبي الصلت قوله ( وكان متألها ) :
ليست بطالعة لهم في رسلها
الا معذبة والا تجلد
وهو هنا يؤكد الملمح الأول المتعلق بنخسها كما يشير الحديث الشريف ، فاذا انتقلنا الى القصص البطولي المصري القديم والملاحم الكنعانية ، نجد أنها تشير الى أن تنيناً يحاول أن يعترض طريق الشمس ـ ليمنعها من الطلوع ويهلكها الا أن قوة إلهية تقف في وجهه . ولعل هذه الرؤية تلتقي مع ماجاء في الحديث المذكور من اعتراض الشيطان طريقها لمنعها من الطلوع فيحرقه الله بها ،ثم يشير بقية الحديث الى كلامها وخطابها وسجودها ، وهي ملامح جاءت في تصوير الشمس حسب الرؤية القديمة لها (١٢) فمن أين جاءت هذه الرؤية ؟. لعلي أزعم أن هؤلاء العرب قد ألموا ببعض المعارف السماوية عن طريق أنبياء ورسل ، لاسيما أن بلاد العرب ـ بأطرافها المختلفة داخل الجزيرة وخارجها ـ كانت مهبطا لعدة رسالات سماوية كما يقول بعض الباحثين ، وكان اختلاط سكان شبه الجزيرة من العرب بإخوانهم في أجزاء العالم القديم ـ كنعان وفنيقية وآشور ومصر الفرعونية ـ واضحا ، وفي ذلك يقول أحمد سوسة : ( والجزيرة العربية كانت مهبطا لعدد من الأنبياء والرسل نادوا بوحدانية الاله ، وما ابراهيم الخليل الا أحد هؤلاء الأنبياء الذين يرجع أصلهم الى الجزيرة العربية .. وقد نسبت هذه الدعوات النبوية الى أصل واحد هو السلالة السامية ) (١٣) ، وعلى هذا ، نقول إنه مع مرور الزمن ، تشوهت هذه الحقائق فبقي بعضها وحرف بعضها الآخر فأصبح الشيطان تنينا يصد الشمس عن الطلوع ليهلكها ، وغدت ارادة الله

في احراقه قوة الهية غير محددة ، اما كلامها وخطابها وتأثرها بالمواقف فبقي كثير منه على ماهو عليه . وان أصبحت الشمس فيها ذات ارادة ذاتية بدا التسخير فيها باهتا ، وبدت ذات فاعلية وحيوية نابعتين من قدرتها الخارقة لكونها ملكا له ( نفس وعقل ) ، أو سكنا لملك جعل لها هذه الحيوية ، تلك الحيوية التي حدد القرآن ماهيتها ومصدرها وحدودها في قوله تعالى : ( لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ) وقوله : ( والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . وسخر الشمس والقمر كل يجرى الى أجل مسمى ) وقوله : ( ألم تر أن الله يسجد له مَنْ في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر ) . (١٤)

وبعد ، فان حيوية هذه الشمس التي شغلت فكر العالم القديم لكونها ذات فاعلية ، سواء أكانت الفاعلية من ذاتها أو ممن يسكنها من الأرواح العلوية المتوسطة في تصريف الأمور ، انما تستمد القوة من الله فتفيض الفيض على الموجودات السفلية ، يقول الشهرستاني : " ان أصحاب الروحانيات لما عرفوا أن لابد للانسان من متوسط ... فزعوا الى الهياكل التي هي السيارات السبع ... وكانوا يتقربون اليها - تقربا الى الروحانيات ويتقربون الى الروحانيات تقربا الى البارئ تعالى. وقد أشار القرآن الى هذه النقطة بقوله تعالى : ( مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ) . وفلسفتهم في تجسيدها بالأصنام انما ترجع الى أن " الروحانيات وسطاء الى الله وشفعاء - ( ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ) ، وهي لاترى لذا جعلوا الهياكل - كما ذكرنا - محلا وهي الكواكب ، وحيث إن الكواكب لاترى أحيانا ، عملوا لها أشخاصا يتقربون اليها ويتوسلون بها الى الهياكل فيتقربون بالهياكل الى الروحانيات ويتقربون من خلال الروحانيات الى الله سبحانه ... فاتخذوا أصنا ماً أشخاصاً على مثال الهياكل السبعة ، كل شخص في مقابل هيكل ، وكانوا يعتقدون أنها تقضي حوائجهم "(١٥).

يقول المتلمس هاجيا عمرو بن المنذر :

أطردتني حذر الهجاء ولا

واللات و الأنصاب لاتئل

ولاعتقادهم بحيوية الشمس التي تمثلها اللات ، ظنوا أنها تتدخل في أمراض عابديها أو إشفائهم ، وعن ابن هشام أن امرأة أسلمت ثم عميت فقال المشركون " أعمتها اللات والعزى ، وقالت قريش ما أذهب بصرها الا اللات والعزى " وعندما جاء المغيرة بن شعبة يهدم اللات تظاهر بأنه أصيب ( فصرخ وخر على وجهه فاذا بالطائف ترتج بالصياح سرورا بأن اللات صرعت المغيرة وأقبل أهلها يقولون كيف رأيتها يامغيرة ؟ دونكها ان استطعت الم تعلم أنها تهلك من عاداها ؟؟ فقام المغيرة يضحك منهم ويقول : ياخبثاء والله ماقصدت الا الهزء بكم ) .

ويروى أنه عندما أسلم ضمام بن ثعلبة ، قال أمام قومه " بئست اللات والعزى قالوا : من ياضمام ، اتق البرص اتق الجذام ، اتق الجنون " . كما كان من صفاتها الغضب والتأنيب والضرب لمخالفيها ، رغم أن عرب الجنوب كانوا يشعرون قربها بالفرح العظيم ، وكان الجميع يهدون اليها ويتقربون بالأضحيات ويطلبون منها مايشتهون ، معتقدين بتجاوبها وتفاعلها مع أدعيتهم ، لاسيما

أنها تمثل قوة كونية خارقة هي الشمس معبودتهم ، وحيث إنهم كانوا يعتبرونها أنثى أو الهة مؤنثة – وما زالت اللغة العربية تعتبرها من المؤنث المجازي فقد وصفها الشعراء بأنها ( تجب وتحب ، وتتحلى بالزينة وتتعطر كالنساء ، منعمة كما يقول قيس بن الخطيم :

تنام عن كبر شأنها فاذا
قامت رويدا تكاد تنغرف

وتجسيدا لهذا الحب وهذه الهيبة في نفوس العرب ، ندبتها النساء عندما هدم صنمها المغيرة ، وبكينها قائلات :

لتبكين دفّ الرضاع
أسلمها الرضاع
لم يحسنوا المصاع

والباكية هذه تجعلها مدافعة عنهم في حروبهم ، فكيف باللئام يسلمونها لأعدائها دون أن يحسنوا المضاربة بسيوفهم دفاعا عنها دفاعها عنهم . وقد أشار القرآن الى هذا الاعتقاد في قوله تعالى : " واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون " . أما اذا كسفت فكانوا يتجهون الى الله بالدعاء قائلين : ( يارب خلصها ) معتقدين – كما في مصر وبابل ان كائنا يعترض سبيلها ، وهو ما أشرنا اليه سابقاً.(١٦)

تلك اذن حيوية الشمس وفاعليتها وتفاعلها ، اذ تنبىء عن قدرة خارقة تصوروها ، فأسبغوا عليها صفات جمالية وجلالية خضعوا لها وأحبوها وتغنوا بها . ذلكم ماكان عند عرب شبه الجزيرة ، وكان مثله عند العرب في مهاجرهم ، في بابل وكنعان وفنيقية ومصر الفرعونية اذ كان الأقدمون عامة والعرب خاصة يتتبعون ( الكواكب والشمس والقمر ، ويراقبون حركاتها في هذه المنطقة المعينة المحدودة من السماء ، ويعتقدون أن لحركاتها أثرا في حظوظ البشر على نطاق الأرض ، ومن هنا نشأ علم التنجيم ) ( ولا بد أن النجوم كانت من أولى الأشياء في الطبيعة التي جعلت الانسان يبتدىء في التفكير فيما وراء عمله للحفاظ على الحياة ، ولقد جعل التأمل في الكون من الانسان القديم في بعض لحظات حياته على الأقل قاصا وشاعرا وفيلسوفا . . ولقد قام بعض الناس في كل مكان – ومنهم العرب – بوضع بعض النجوم الواضحة في مجاميع ورأوا في هذه الأبراج كل أنواع البشر والآلهة والحيوانات والأشياء . . (وهي) تبدو بعيدة عن الانسان . . تخاطب أكثر ماتخاطب فيه تصوره الشعرى والديني ) ، فكان في نتاجه الفكري مشاهدات دقيقة للحقائق العلمية عن هذه النجوم (١٧) . وعليه فقد وصلنا من التراث الديني والأدبي لكنعان وفنيقية وبابل ومصر – مهاجر عرب جنوب الجزيرة – مايعطي صورة عن اعتقاد هؤلاء بحيوية الطبيعة وفاعليتها وتجاوبها مع الانسان (١٨) ، اذ إن الآثار الأدبية تصور الواقع وتفسره بمقدار الوعي للبيئة الفردية والجماعية ، ولعل الوعي الجماعي القديم يدرك الظواهر بالحس أكثر مما يدركه بالعقل العلمي ، ففي مصر مثلا كانت الأجرام السماوية هي الصور الخارجية لأرواح عظيمة ذات ارادة – تماما كعرب الجزيرة – ولذا اعتقدوا بفاعلية الشمس فعبدوها ، لما لها من فضل على الحياة والأحياء . فآتون ( الشمس ) موجودة في الأزهار والأشجار وجميع صور الحياة والنماء ، وهكذا أصبح التغني بفضلها وحبها وجمالها طقسا دينيا وشغل الأدباء والشعراء على حد سواء . ففي نشيد موجه لآتون يقول الشاعر المصري القديم ( ان طلوعك جميل في أفق

السماء ، أنت على علو شاهق ولكن آثار قدمك النهار ، أنت سيد كل أرض الذين تشرق لأجلهم ، أنت شمس ... جميع الأقطار القاصية أنت تصنع أيضا حياتها ).

ويقول آخر ( الكون متعطش لضيائك تجازي بالسجن من أعوج من القضاة ،وتعاقب السيد الشرير والفاسد ، وكل مستقيم يحمي الوضعاء نبال حظوتك ، أي شمس وتطول أيامه (١٩). فحيوية الشمس اذ ن وفاعليتها تتدخل حتى في القضاء وطول العمر والعقاب ، وتقديم الحظوة ، كما تتدخل في الخصوبة والنماء لأنها مصدر الحياة عندهم ، كما هي مصدر الضوء والبهاء والجمال .

والمصريون القدماء ـ كعرب الجزيرة ـ كانوا يتصورون أن الشمس تتفاعل مع بعض المواقف ، يقول شاعرهم ( لسوف يثبت قرص الشمس حيث كان بالأمس ويحتجب الضياء ويعم الظلام الى أن يبرأ حور ) ابن أوزوريس ، وكان مريضا موشكا على الهلاك ، والنص الشعري هذا يوازي ـ من حيث الاعتقاد ـ ماروواه المغيرة بن شعبة اذ قال " انكسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات ابراهيم ، فقال الناس انكسفت الشمس لموت ابراهيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاينكسفان لموت أحد أو لحياته ، فاذا رأيتموها فادعوا الله وصلوا حتى تنكشف " متفق عليه . والخبر علاوة على تبيانه ان للدعاء فاعلية وحيوية تقود ان للاستجابة ـ يطابق ما سقناه من شعر متعلق بهذه النقطة ، ويؤكده مايقوله عنترة في الرثاء ، وكسوفها عادة مصاحب الرثاء :

ترى هل عرفت اليوم مقتل مالك
ومصرعه في ذلة وهوان
فان كان حقا ،فالنجوم لفقده
تغيب ويهوى بعده القمران

والشمس عند هؤلاء تنظم الفصول ، تقول الانشودة المصرية القديمة ( أشعتك في كل وجه ولا يدركها أحد .. أنت مبدع ماتخرجه الأرض .. يامن ينير العالمين بكوكبه .. منظم الفصول والأهلة ، فهي حر كلما أراد وهي برد كلما أزاد (٢٠) وتشير الصور المجسدة للشمس في مصر القديمة الى أنها تمد الأرض بالحياة وتتفاعل مع الزهور وتضاحك النبات كما هي الحال عند عربي الجزيرة حيث أشرنا . تقول الأنشودة : ( الزهر ونبت الأرض يتفتح لمرآك ، وتتملكه النشوة لمحياك ... الأرض بأسرها عامرة بحبك والعشب والشجر يتمايل لمطلع وجهك) والفكر المصري هنا فكر عربي ، اذ أكد عدد من مشاهير علماء الآثار أن الهجرات من جزيرة العرب لم تقتصر على سوريا وفلسطين ولبنان والعراق ، بل تعدتها الى مصر أيضا ، حيث يعتقد بأن جماعات نزحت من جزيرة العرب الى وادي النيل واستقرت فيه ، في حدود الألف الرابعة ق . م .

ويبدو أن عرب بابل قد انطلقوا من الفكر نفسه ، فوادي الرافدين ـ كما نعلم ـ كان امتدادا ( لجزيرة العرب بل جزءا لايتجزأ منها ) . وكان حكام هذه المنطقة على مدى مراحل التاريخ القديم عربا ساميين ، ويشير العلامة أحمد سوسة الى أن أطراف الجزيرة كانت تتكلم العربية الأم كما كانت تتناول القوانين والتقاليد الدينية الواحدة ودين هؤلاء فلكي في جوهرة اذ كانوا

يعبدون الأجرام السماوية كما هي الحال عند العرب ، ويؤكد سبتينو موسكاتي هذا بقوله : ( وأشكال الطقوس المستعملة بين الساميين – العرب – حتى بعد أقامتهم بين شعوب مستقرة – في مهاجرهم الجديدة – تنم غالبا عن أصولهم البدوية ) كما يرى غيره أن الدين العربي القديم هو الخطوة السابقة لدين هؤلاء ، وكانوا يزعمون أن الأجرام السماوية ( هي المدبرة لهذا العالم ، ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية ) وهي نفس الفكرة عند عرب الجزيرة ومصر، اذ كانت الأجرام هي الصور الخارجية لأرواح عظيمة ذات ارادة ، ومما يوافق ذلك ماقاله عبيد بن الأبرص :

فالشمس طالعة وليل كاسف
والنجم تجري أنحسا وسعودا (٢١)

وهي روح واحدة صادرة من فكر حضاري واحدة . وتبدو حيوية الشمس وفاعليتها في بلاد الرافدين متنوعة ، فقد كانت الشمس المحرقة هي المنصفة العادلة وفيما بقي ( كانت مراحل الشمس متميزة في العبادة التي كانوا يؤدونها لها فلشمس الصباح الأولى التي تمحو ظلمات الليل الباردة كان يعزى سلطان الخصب وكانت شمس الظهيرة قاتلة .. وهكذا أصبح شمس اله العدل والشرائع والخصب والري ) وهذه أمور تمثل جوهر الحياة الانسانية وفي هذا يتغنى الشاعر العراقي القديم فيقول :

( ايه ياشمس ، ياملك السماء والأرض ،يامن توحد كل شيء .. وتحرر الأسير من قيده انك قاض لاسبيل الى فساد ذمته ) ( ان أشعتك المضيئة لتهبط الى الهاوية فترى وحوش الأعماق ضياءك ) ( كل يوم وأنت تقضي بقرارات السماء والأرض ، وعند قدومك في توقدك ولظاك ، تسحق كل أنجم السماء ) ، وكأن الشاعر هنا يردد قول النابغة :

وانك شمس والملوك كواكب
اذا طلعت لم يبد منهن كوكب(٢٢)

ويصور الأدب البابلي حيوية الشمس حين تتحدث كالانسان ، وتضرب المواعيد، وتبلغ أمر الاله وتستمع الى جلجامش البطل الملحمي وتحنو عليه وتتجاوب معه لتلبية طلبه في دخول أرض الحياة .

وتشارك بلاد الشام بفكرها جزيرة العرب ومصر وبابل ، فتجعل للشمس حيوية وفاعلية وتفاعلا في تراثها ، وأكثر التراث ( ممتلىء بالجوانب الدينية ومطبوع بطابع الايمان ) ، خاصة فيما يتعلق بحيوية ظواهر الطبيعة . وقد صوروا الشمس في سقف معبد بعل كمصدر للحياة وتمثلها اللات ورمزها الأسد والحية وتشاركها تدمر في الفكرة نفسها .وملحمة البعل تبرز حيوية الشمس ، فتجعلها تتكلم وتحاور وتصرخ وتتلقى التعليمات وتنفذ الأوامر وتبحث عن بعل ، ثم تؤنب في النهاية . وكان لقبها في هذه الأنحاء من بلاد العرب – كما هو في الجنوب – السيدة ، وكانوا يعدون الصبح ابنا لها ، وحاجبا ، اذ كانوا يرونه أثرا من آثارها.(٢٣) ولعل رمز هؤلاء جميعا عن الشمس بالمرأة والغزالة والفرس والمهاة والغزالة ناتج عن شعورهم بأنها تجسد الخصوبة والقوة والجمال التي تتصف بها هذه الالهة – الأم ، علما بأن النصوص السامية الشمالية ترسم الشمس في شكل امرأة جميلة عارية ، وتشير الى أشعتها بالشعر الذهبي المسترسل وكل هذه الصفات الجسدية تجعل منها مثالا للجمال والعطاء والحياة في حالتي اللين

والقسوة ، تلكما الحالتان تشعران هؤلاء بالحب والخوف معا .

والأديب أو المبدع هنا حينما يرسم صورة للشمس ويكسبها حياة وحركة وحيوية ، انما يستدعي بعمله هذا رصيده من المعارف البصرية والسمعية ،التي تتعلق بالكائن الحي ، والحال كذلك حين يضفي على الجماد روحا ولكن ، هل كل ماهو جامد ، هو كذلك حقا ، أم أن فيه نوعا من الحياة أشار اليها القرآن في عدة آيات ومنها قوله تعالى: ( وان من شيء ألا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم ) ( سبح لله مافي السموات وما في الأرض ) وغيرها من آيات تشير الى حياة الأشياء والجماد ، اذ أن التسبيح لايصدر الا عن حي ، فهل كان هؤلاء على علم بهذه الحقيقة ، وقد كانوا يرون أن العالم زاخر بالحياة التي تتجسد في الانسان والحيوان والنبات وفي كل ظاهرة تواجههم ( من رعد قاصف وظل مباغت وحجر يتعثرون به ) ، لاشك في أن الجزيرة العربية بكل أطرافها- وكما أشرنا سابقا - كانت مهبطا لعدد من الأنبياء والرسل وهم جميعا يصدرون عن مشكاة واحدة ، وقد ورد عن النبي عليه السلام قوله : ( الانبياء أخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد) ويؤكده قوله تعالى : ( ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ) . ويؤكد ديتليف نيلسون أن العرب في الجزيرة العربية كانوا يؤمنون بالله الواحد الأحد ، كما هي الحال في مهاجرهم الجديدة آنذاك . وتأسيسا على ذلك ، نجد أن هناك أصول سماوية للاعتقاد بحيوية الطبيعة ، وقد حرف الكلام عن موضعه بسبب التقادم أو نزعات الشيطان أو سوء الطوية ، ومن هنا بدت الطبيعة لهؤلاء " شيئا حقيقيا ذا قوة وقداسة ... تنطوي على عظمة وجلال وألوهية ... تفعل وتنفعل وقد تستجيب لرغباتهم ، وتفهم لغتهم التي يخاطبون بها الظواهر والأشياء من خلال وسائط سحرية (٢٤).

أما حيوية القمر وفاعليته ،فتتجسد في كونه " ملك السماء " كما يزعمون وقد عبده العرب ( لما ظنوه من تأثيره في تحسين المراعي بالطل والندى ونمو النبات والزرع ) واليه تدبير العالم السفلي ، وهم بهذا قد تخيلوه رجلا له وجه جعلوا له من بقع السواد التي نراها فيه أنفا وفما وعيونا ، وقالوا بفاعليته ، وكان عند بني عذرة على هيئة رجل عظيم عليه حلتان يمسك سيفا ويتنكب قوسا وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل ، وكلها من سمات الرجل المحارب الشديد الشكيمة ، وقد أطلق عليه العرب أوصافا كثيرة منها : الصديق ، العم ، الكهل ، العادل ، الحامي المبارك ورسول القافلة ، ذلكم هو ود ذو النعوت الجمالية والجلالية ، تلك النعوت التي جعلته زوجا كفئا للشمس وأبا للزهرة ، هو رجل مكتمل الرجولة اذن ، يتزوج وينجب ويصادق ويحكم بالعدل ويحمي ثم يشيخ ، وكلها صفات وسلوكيات انسانية تشير الى فاعلية وحيوية وحياة توهله لأن يكون متوسطا لاتمام زواج الدبران من الثريا كما يقول القصص الاسطوري التعليلي عند العرب اذ قالوا أن الدبران خطب الثريا وأراد القمر أن يزوجه فأبت عليه وولت عنه مخاطبة القمر : ( ما أصنع بهذا السبروت الذي لامال له ) ،والثريا هنا تمثل نظرة المرأة الى عناصر الكفاءة في الزواج،وعلى رأسها النواحي المالية ، أليس كذلك،

بينما يمثل القمر ولي الأمر المجـــرب الحكيم . وحيوية القمر الايجابية هـــذه تتجاوب مع الانسان العربي في حالة كربه ويجسدها عنترة في رثائه قائلا :

خسف البدر حين كان تمامـــا
وخفى نوره فكان ظلامـــــا
حين قالوا : زهير ولى قتيلا
خيم الحزن عندنا وأقامـــا

والقمر في هذا كالشمس ، يشتركان فـــي التجاوب مع البشر في مآسيهم ،ويقاسمانهم الحزن ، تقول الخنساء مؤكدة زعم العـــرب في هذا التضامن الكوكبي :

والشمس كاسفة لمهلكـــه
وما اتسق القمـــــر

ثم تشير الى مشاركة الجبل حين يبكي :

لما رأيت البدر أظلم كاسفـــا
أرن شواذ بطنه وسوائلـــه
رنينا وما يغني الرنين وقد أتى
بموتك من نحو القريّة حاملـــه

وقبل أن نودع قمر العرب هذا ، لنسمـــع تحيته لمحبوبة النابغة الذبياني :

حياك ود ، فأنا لايحل لنـــا
لهو النساء وأن الدين قد عزمـــا

بينما يجعل عنترة القمر – ودا ، يشيـد بشبيهته عبلة ، ولا يتركها الا بعـــد أن يكلفها بالقيام بمهمته المعتادة وهي انارة الكون ليلا واضفاء السعادة عليـــه اذ يكلمها قائلا :

وقال لها البدر المنير ألا أسفـــري
فانك مثلي في الكمال وفي السعـد

وذلك بعد أن كلمتها الشمس فـ :

أشارت اليها الشمس عند غروبهـــا
تقول : اذا السودالدجى فاطلعي بعدي

أية حيوية ،قمر يتحدث ويعين نائبة عنه ويحيى المحبين ، ويزوج ويتزوج ويحـــزن هو قمر – لاشك – ذو قوى فاعلة يشعـــر المرء حبالها بأحاسيس تمتزج فيها الرغبة فتوجهان سلوكيات المرء تجاه هـــذا المبارك .

ولما كان لابد من اكرامه والتقرب اليه لهذه الفاعلية المؤثرة في نواحي الحياة ، كان والد مالك بن حارثـــة – كما يروى ابن الكلبي – يعطيه ( اللبن ويكلفه بالذهاب الى الصنم " ود" ليسقيه ويستغفره ) (٢٥). والاستغفار نوع مـــن التقرب بالدعاء ، ولذا نجده في مسجوعة عربية قديمة يقول نصها " ود الهنا الحكم ان نملك ..فله الحياة في البيد والقفـــار والأجـــم " .

ولما كان القمر يلعب دور الأب عندهم في حين أن الشمس تقوم بدور الأم والزهرة بدور الابنة – تصوروا أنه يحمي أبناءه المؤمنين ويحبهم كما يحب الأب أبنـــاءه اليس هو الحامي والصديق ، حتى وان كـــان العلم الحديث لايرى فيه أكثر من جســـم يستمد نوره من الشمس ، وهي معلومـــة تصورها بعض العرب قديما اذ أرجعوا أصل نور القمر والكواكب الى الشمس كما ذكرنـا رغم توهمهم انسانيته التي رصدهـــا أدباؤهم من منطلق فكر حضاري اسطـوري عميق الغور . ولقد لفت هذا النير أنظار عرب بابل وكنعان وفنيقية ومصر الفرعونية ورأوا فيه حيوية وفاعلية عظيمتيـــن وهؤلاء وعرب الجزيرة قد تصوروا هـــذه الحيوية لاتفاقهم معا على شكل دينـــي واحد هو الايمان بالكواكب وأهمهـــا ( القمر والشمس والزهرة ) ، ذلك الثالـوث الذي كاد يكون عندهم جميعا عائلـــة واحـــدة .

والقمر في بابل هو ( سين ) الحضرمي و(ود) المعيني وفي بقية الجزيرة العربيـة وقد حمل الصفات نفسها من الحب والحكمـة والعلم والكرم والصدق ، بل كان في مصـــر يمثل جزءا مهما في اسطورة أوزوريـــس

( بحيث ان اله القمر كان في كل شهر يرفع الأذى عن عين حورس في قتاله مع ست ) ،كما كان ( الها للموازين والمكاييل والمقاييس والحكمة ) ،وهم بهذا يشخصونه ويجعلون له حيوية وحياة ، كانت تتعرض أحيانا الى نقيضها – الموت عند البابليين اذ تحكى ترتيلة دينية – كانت تقام وقت خسوف القمر – قصة موت القمر الذي سببته بعض العناصر الشريرة حين شقت طريقها الى القبو السماوي – كما تقول الاسطورة من خلال الترتيلة – فأظلم القمر ( في الليل والنهار ولم يقم من مقامه ) وتبين الترتيلة أن الهواء يكلف وزيره لتخليص ابنه القمر (٢٦).

هذه هي النظرة القديمة للقمر يخلصها عبد الحميد يونس بقوله : ( لقد كان القمر – باعتباره أحد النيرين الكبيرين الذين يؤثران في ظواهر الطبيعة والحياة والكون – من المحاور الرئيسة للفكر الاسطوري عند الانسان القديم ، فرفعه الى مقام الالوهية والتقديس ... كما أن ملاحظه الانسان من التغير الظاهري في شكل القمر جعله يقرن هذا الكوكب بما يلاحظه على الكائنات الحية من نمو يبلغ حدا معينا من الاكتمال ، ثم يأخذ بعد ذلك في التناقص والأفول ) . وقد وردت هذه النظرة فيما قاله حسان السعدى :

ومهما تكن ريب المنون فانني
أرى قمر الليل المعذب كالفتى
يهل صغير ثم يعظم ضوءه
وصورته حتى اذا ماهو استوى
تقارب يخبو ضوءه وشعاعه
ويمصح حتى يستتر فما يرى

ولما ان كان القمر( مرتبطا بالليالي في حياة الانسان ، فقد تصوره كائنا حكيما يعرف بالتعقل والاتزان في السلوك وجعله رمزا للخير والخصب والجانب الايجابي من الحياة ... وكان قادرا على أن يفض المشكلات ... ومن أشهر صوره – عند قدماء المصريين – مراجعته حسنات الموتى وسيئاتهم ... كما في بابل وقد تحول عند الآشوريين اله حرب وقد صور على بعض الاختام – في صورة شيخ له لحية مرسلة – وهو – مصدر القوى المؤثرة في العالم والكون ) . ولا شك في أن تحليلنا للتعابير الفنية الجاهلية يوصلنا الى بعض الاشارات والتفسيرات للموروث الحضاري العربي المتضمن مضامين انسانية عميقة الجذور عالمية التجربة تلك التجربة التي خضعت لظروف موضوعية مشابهة في أركان العالم القديم .

وبعد ابحارنا مع القمر العربي – والاشوري بوجه خاص – في السماء ( اذ كانوا يتخيلونه زورقا يخترق السماء ولقبوه بالزورق المضيء ) ، ننتقل الى حيوية ابنته الزهرة ، ذلك الكوكب المدهش الذي دفع القدماء الى عبادته جاعلين منه بمنطق الفكر الاسطوري – الهة للحب والجمال والحرب والخصب ، دون أن يعلموا أنها مغطاة بجو كثيف من الغيوم التي تعكس أشعة الشمس بهذه الشدة مما يحجب عنا رؤية سطحها الذي تندلع فيه الغازات وتسيل عليه السوائل البركانية ، بالاضافة الى أنها – وكما يقول كولين رونان صحراء غبراوية شديدة الحرارة .

فكيف بها – والحاله هذه – تشغل فكر الأقدمين ، فيتغنون بها ويسجلون حيالهم عواطفهم ومشاعرهم التي تجسد الوجدان الجماعي للأمة ؟؟ ان خيال الشاعر البصري يحول الجامد وشبيهه الى أحاسيس متفجرة تشير الى تفسير مادي لموقف في مرحلة حياتية مبكرة ، على حد قول أستاذنا أحمد كمال زكي(٢٧).

ويتمثل اعتقاد عرب الجزيرة قبل الاسلام كغيرهم – بحيوية الزهرة في أنها كانت امرأة أغوت الملكين هاروت وماروت ثم تعلمت منهما من السحر ماجعلها تعرج الى السماء فجعلها الله ذلك الكوكب الجميل . وقد يؤكد تصورهم الاسطوري هذا ماورد عن عبد الله بن عمر أنه كان كلما رآها لعنها وقال : هذه التي فتنت هاروت وماروت . واذن ، فهي في نظرهم امرأة تغوى ولها فاعلية ومن ثم فقد حملوها معاني البياض والحسن والبهجة ، وسماها منجموهم " السعد الأصغر " ، وأضافوا اليها الطرب والسرور واللهو واعتقدوا أن النظر اليها يوجب الفرح ويخفف حرارة العشق ويوقع بين المتآلفين من شدة الحب ما يتعجب الناس منه .

والاعتقاد بهذه القوة الخارقة قديم ، يشير الى تصور الانسان ان وراء المظاهر المتبدية للعالم قوى الهية فاعلة تتمتع بحيوية فائقة وقوة مستمرة مما دعاه الى التقرب لهذه القوى وكسب عطفها ومن هنا احتفى العرب بعبادة العزى التي تمثل الزهرة . ويذكر ابن الكلبي في أصنامه أن العزى كانت ( الهة أنثى بوادى حراض تسكن ثلاث سمرات ، ولها بيت يسمع فيه الصوت ويشتو فيه الرب ولهذا البيت حمى آمن لايقتحمه أحد ولا يقطع شجرة ولا يقتل العائذ به ، وكانت قريش تخص هذه الالهة دون غيرها بالزيارة والهدية ، وقد ذبح بعضهم الأسرى عندها تعظيما لها ) وهي عشتار الساميين ، وقد كانوا يصورونها على هيئة امرأة حسناء ، وعرفت في بابل وكنعان وفنيقية على أنها الهة الحب كما هي في الجزيرة العربية وشبه جزيرة سيناء حسبما جاء في النقوش التي عثر عليها هناك ، وعرفت الزهرة بأسماء تبعا لظهورها بعد غروب الشمس أو قبل شروقها ، فهي نجمة المساء ( عثر) ونجمة الصباح أو العزى ، وكوكب الحسن .

وحيويتها تكمن اذن بأنوثتها وانسانيتها ، كما تكمن بفاعليتها السلبية حين تصيب أحد الكافرين بها في بصره ، كما تقول قريش في امرأة أصيب بصرها ( ما أذهب بصرها الا اللات والعزى) ويؤكد اعتقادهم هذا بحيويتها ماكان من خالد بن الوليد حين أمره النبي عليه السلام عام الفتح بهدم صنم العزى وقد كان ، فخرجت منها حبشية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها تصر بأسنانها وخلفها دبية السلمي سادنها يشيرها على خالد قائلا :

أعز أي شدى لاتكذبتي
على خالد ، ألقي الخمار وشمري
فانك ان لم تقتلي اليوم خالدا
تبوئي بذل ، عاجلا ، وتنصري

ويتحدى خالد هذا الاعتقاد قائلا :

ياعز كفرانك لاسبحانك
اني رأيت الله قد أهانك

رغم تحذير السادن له ( احذرها فانها تجدع وتكتع) وصياح قريش (ياعزى خبليه ، ياعزى عزريه ) أي سبي له الجنون واضربيه بشدة . ولعل هذا آت من اعتقادهم أنها من بنات الله تعالى الله عما يصفون ، ولها فاعلية كما لها شفاعة ، وقد سبق وان أشرنا الى اعتقادهم بأن الكواكب هي هياكل الملائكة ، والأصنام تمثلها ، علاوة على أنهم كانوا يعتقدون أن أرواحها تسكن الأصنام ، وكثيرا ماكانوا يسمعون حسب أوهامهم – من أجوافها همهمة وأصواتا بين الجاحظ أنها من حيل السدنة ليتكسبوا من ورائها .

ولفاعليتها المقدسة ،كانوا يقسمون بها فيقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دينها

وبالله ان الله منهن أكبر

والعزى – الزهرة – تفعل فعل الانسان وتتأثر بأحوال المناخ مثله ، وهكذا يقرر كاهنهم عمر بن لحي أن ربهم يشئو بالعزى لحر تهامة . ولعل هذا يؤكد أيضا أن عرب الجاهلية في عبادتهم لصنم العزى وغيره كانوا يعبدون ماترمز اليه من قوى علوية خارقة ، تمتلك مقدرة النفع والضرر ،وتسكن هذه الأصنام وتفعل تلك القوى التي جعلتها بعض الروايات شيطانه كانت تسكن اللات والعزى ومناة ، تكلمهم ( وتتراءى للسدنة وما الشيطانة الا جنية من الملائكة التي تزعم قريش وبعض القبائل الأخرى أنها من بنات الله وأنها تحل في الأصنام ولذا كانوا يهدون اليها الحلي والثياب النفيسة ، ونلمح هذا فيما يقوله كعب ابن مالك :

وتنسى اللات والعزى وود

ونسلبها القلائد والشنوفا (٢٨)

وحيث أن الكشوف الأثرية في رأس شمرا والبحر الميت وايبلا القريبة من حماة السورية وغيرها أكدت العلاقة الشديدة بين عرب الجزيرة والمصريين والكنعانيين والفنيقيين ، وعلى وحدة نسبهم ، فانه لابد أن تكون لديهم الحضارة الفكرية نفسها ، لاسيما وأن شبه الجزيرة هي الأم لكل هؤلاء .

وفاعلية الزهرة في كنعان وفنيقية تبدو في صفاتها الجلالية والجمالية ، فهي تحطم رأس الطامع في ملك أبيه كما تقول ملحمة كارت الملك الذي دعا على ابنه الطامع بقوله :لتحطمن عشتروت – الزهرة – سمية البعل هامتك" ولم لا وهي في نظرهم الهة الحرب أيضا ولئن كانت في النصوص الأوغاريتية تمنع بعلا زوجها من أن يقتل رسل (يم) لأن الرسول لايقتل ، فهي اذن محبة للسلام في أصول الدبلوماسية أيضا .

والجمال الأنثوي المثال يتجسد في صورتها كما يصفها شاعرهم ، وهي تجلس – في تماثيل أشور – على عرش قائم على عربة تجرها سبعة أسود وتحمل بيدها قوسا مشدودة . هي محاربة اذن ، تجمع بين النقيضين الخشونة واللينونة الرجولة والأنوثة ، وها هي ذي انشودة بابلية تقول " ايه يانجم الشقاء، انك تجعلين الأخوة المتوائمين يقتتلون ولو أنك تمنحين الصداقة الدائمة ، أيتها القادرة ، ياسيدة المعارك التي تقلب الجبال رأسا على عقب ، أي قوة هذه وأي جبروت ، مع أنها عندهم أيضا منتجة الخضرة والخصب وملكة السماء كما تقول أنشودة تعود الى حوالي (١٦٠٠ق م) ( الاجلال لملكة النساء وأعظم الآلهة طرا ، تلك الرافلة في أثواب البهجة والحب المملوءة حيوية وسحرا ومرحا نزقا ، هي معسولة الشفاه ، الحياة في فيها والمسرة تزيد وتعظم في حضرتها ما أحلى مرآها بالنقب المرخاة على رأسها وبقوامها الجميل وعينيها اللامعتين) وفي أنشودة أخرى يقول شاعر بابلي: "أقدسك أيتها العذراء ، بأغنية امتدحك ، اني أشهد سيدتي في السماء وفي الأرض ، الى حضرتها أتقدم سيدة الصون .. انني أمجدك ياسيدة السماء " " عشتار من ذا الذي يضاهيها في العظمة " ولذا فقد كان ظهورها عندهم يدل على رواج سوق الزواج خصوصا بالنسبة للعانسات ، أليست جميلة الجميلات عند عرب الجزيرة وبابل وغيرهم وبنتا من بنات الله ، تعالى الله عما

يصفون ، واذن ، فان فاعليتها لابد أن تكون مضاعفة ، ولقد أشار القرآن الكريم الى هذا الاعتقاد الاسطوري في قوله تعالى ( أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك اذن قسمة ضيزى ) وذلك لتغلغل هذه الفكرة في نفوسهم وعقولهم تلك الفكرة التي تضفي على هذا الكوكب من الصفات ما يجعله امرأة حسناء مكتملة ، لكنها تملك من القوى ما يجعلها في مرتبة الآلهة ، تتدخل في سلوكيات ومصائر البشر ، وتساعد المحبين على الحصول على السعادة واتمام الود كما يقول نقش ثمودي صفوى ، يتوسل صاحبه الى العزى ـ الزهرة ،لمساعدته في حبه " يارضو ساعدني على حبي ، ياالعزى أتم لي ودي ، ياعشر سم ساعد" . هذه هي الزهرة ، عشتار ، عشروت ، العزى عشر ، وهذه هي فاعليتها عندهم وحيويتها التي تتعرض للموت كباقي البشر أحيانا حسبما تقول الملحمة البابلية التي تحكي حكاية نزولها الى العالم السفلي بحثا عن تموز زوجها ، وبنزولها تصاب الحياة بالموت والخصوبة بالجفاف وهذا طبيعي لأنها منتجة الخضرة والخصب حسب النظرة الاسطورية القديمة في الجزيرة والشرق الأدنى القديم ،ومن الغريب أنها تعود للحياة من جديد طبقا لمعتقدهم بالموت المؤقت للآلهة الرئيسية ضمن " الشعائر التي تقام في أعياد رأس السنة " (٢٩) تلك اذن حيوية الزهرة ، التي جعلها الفن الأدبي عالما من الاشارات والرموز ذات الدلالات الانسانية العميقة .

ولما كان عرب الجاهلية يميلون الى التجسيد ،فقد شخصوا الكواكب والنجوم وافترضوا لها حيوية فاعلة أظهر شعرهم بعضها . والشعر ـ كما يقول نيكلسون يمكن أن نعتبره عرضا تصويريا لحياة الجاهليين وعقليتهم المعقدة . وما دام الفن الأدبي بمثابة وعي فني للواقع تتفاوت درجة موضوعيته بتفاوت قربه أو بعده عن الحقيقة وبمقدار ادراك المرء للظواهر ، فان هذا الفن عند العرب كان شكلا للمعرفة ، يصور التجربة الانسانية والنشاط الاجتماعي من خلال لغة يلعب الرمز والكلمة فيها دورا مهما يجسد الحالات الانفعالية ويخرجها في أجمل صورة وأدق تعبير .

ويعتقد تايلور أن أفكار الانسان القديم تبدو لأول وهلة وهمية ، مع أنها ليست مضطربة أو متناقضة ، بل أنه يتبع سلوكا مماثلا لأي فيلسوف حق ، فهو يجمع مادة تجربته الحية ويحاول تنظيمها تنظيما متماسكا (٣٠). وعليه فقد كانت فلسفة العربي ـ في نظرته للطبيعة ـ تنطلق من الاعتقاد بأن هذه الطبيعة ان هي الا انعكاس لأحداث ومظاهر تقع فيما وراء الطبيعة ، وان هذا الكون مليء بالحركة والحيوية ، والحياة تتمثل في كل جزء من أجزائه ، ولعل بعض الآيات القرآنية الكريمة تؤكد هذه الحياة كقوله تعالى : ( وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم ) وقوله ( سبح لله مافي السموات وما في الأرض ) وقوله :( انما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون ) . وتلقي القول لايكون الا من حي مدرك ، له حيوية معينة لاندركها حتى الآن ، وقد أشار العالم ( وليم فرجارا) الى أن الكون مفعم بالطاقة دائم الحركة ، وانه مرتع للأسرار .(٣١) وعلم العرب بالكواكب والنجوم قديم ، وان كانت الحقيقة الموضوعية عندهم تلتبس بالأوهام أحيانا ، ويزعم ابن قتيبة أنهم أعلم الأمم بالكواكب

ومطالعها ومساقطها، ويشاطره ابن رشيق الرأي ، أما القزويني فيرى أنهم في هذه المعرفة السماوية أصدق من غيرهم فقد سجلوا في آثارهم الأدبية كثيرا مما يتعلق بالأنواء وما يتعلق بها من أمطار وريح وخصب وجدب ، ومن هنا نسبوا الى الكواكب والنجوم أفعالا وجعلوا لها فاعلية وحيوية تؤثر في الظواهرالطبيعية وعالم البشر ، من حيث شؤمها وسعدها معتقدين أن لها قوى خارقة توجه الحياة فالدبران مثلا – وهو كوكب أحمر منيريتلو الثريا ويسمى تابع النجم ( الثريا )– سمي الدبران لاستدباره الثريا ، وهو من النجوم التي يتشاؤم بها العرب ، وقد جعلوا حيويته تتمثل في اتباعه الثريا حيثما توجهت ومعه قلاصة مهرا لها، يسترضيها بعد رفضها اياه زوجا ، وقد أشار طفيل الغنوي الى ذلك بقوله :

أما ابن طوق فقد أوفى بذمته
كما وفى بقلاص النجم حاديها

وهم – كما يزعمون – لايمطرون بنوئه وقد قالوا فيه " اذا طلع الدبران توقدت الحزان ، وكرهت النيران .. ويبست الغدران " لاشتداد الحر وهبوب السموم وقد ضربوا بشؤمه المثل فقالوا ( أشأم من حادى النجم ) ، ولعل خوفهم منه جعل بعض العرب يقدسه كتميم وقريش وكنانة رهبة منه واتقاء لشره . وتقديس ما يخاف منه كان سائدا في العالم القديم . ولعل صفات الدبران السلبية هي التي جعلت الفكر الاسطوري يزعم أن الثريا رفضته ، فهي مصدر الثروة كما يقولون وقد سميت بالثريا لأن المطر بنوئها يكون به الغنى ، وعليه فانها والدبران على طرفي نقيض ، فكيف يجتمعان رغم محاولات القمر الجمع بينهما بالزواج .

ونظرة هؤلاء الى حيوية الدبران والثريا ، جعل مجموعة النجوم الصغيرة حول الدبران قلائص ونوقا صغيرة تطلح أن تكون مهرا للثريا ، ذلك النجم اللامع الذي يحيط به عنقود من النجوم يطلق عليه ( الاخوات السبعة ) التي ترى ست منها بالعين المجردة . هذه الحيوية في تصورهم – أهلت هذا الثنائي للتقديس ونجد صورة الثريا المتلألئة عند قيس ابن الخطيم في قوله :

كأن الثريا فوق ثغرة نحرها
توقد في الظلماء أي توقد

وامرؤ القيس يحدد زمن لقائه بمحبوبته بقوله :

اذا ما الثريا في السماء تعرضت
تعرض أثناء الوشاح المفصل

ومع أن النجوم أجرام سماوية هي محل ظواهر فيزيقية مختلفة ، منتجة للضوء الا أن هؤلاء أبوا ألا أن تكون ذات تأثير وحيوية خارقة ، ولئن كانوا محقين في رصد هذا التأثير متفقين بذلك مع العلم الحديث الذي يرى أنها ( تؤثر فعلا على الأرض ولكن هذه التأثيرات تحدث بسبب وجود قوانين كونية دقيقة ومحكمة تحافظ على النظام بين تلك الأجرام أثناء حركتها ) (٣٢) كما أن ذلك لايعني أن تدخلها في الحياة يسبب الثروة أو يحرم منها ، أو يشير الى سوء الطالع والشؤم كما أنها لاتتأثر لموت أحد أو حياته ولكنه الفكر الاسطوري يأبى الا هذه الفاعلية والحيوية ، نلمسه عند الحارث ابن حلزة واصفا كرم ممدوحه في اليسرة والعسرة :

لايرتجى للمال يهلكه
سعد النجوم اليه كالنحس

ولما ان كانت الكواكب والنجوم عند هؤلاء تفعل أفعالا تجرى في الضر والنفع فقد جعلوا ذوات الأنواء منها أناشا

منتجة ، بينما جعلوا الأخرى ذكورا ،يقول بشر بن أبي خازم :

جادت له الدلو والشعري ونوّها
بكل اسحم داني الودق مرتجف

ويقول آخر :

مقابلة في الأكرمين وبعلها
أبو الأنجم المستمطرات نوالها

ويقول أعشى باهله يرثي أخاه :

يغيث من لاتغب الحي جفنته
اذا الكواكب أخطأ نوّها المطر

كما أشاروا الى سقوط النجوم هذه ، ذكر ذلك أبو الطمحان حنظله بن الشرقي :

نجوم سماء كلما انقض كوكب
بدا كوكب ، تأوى اليه كواكبه

ويشير النابغة الجعدى الى الشعرى بقوله :

تلألأ كالشعرى العبور توقدت
وكان عماء دونها فتحسرا

ويقول الأعشى :

وعرش والشعرى تفور كأنها
شهاب غضا ، يرمي به الرجوان

ويقول آخر :

ويوم من الشعرى كأن ظباءه
كواعب مقصور عليها ستورها
تدلت عليه الشمس حتى كأنها
من الحر ترمي بالسكينة قورها

والشعرى ـ كما يقول علماء الطبيعة شعريان ، فاليمانية منهما ( وهي من مجموعة الكلب الكبير ( Canis - Majon ) نجم مزدوج أحدهما بالغ والآخر قزم ، أما الشعرى السامية أو الغميصاء فهي سابع المع نجم في السماء أصفر اللون ، حيكت حوله أساطير ملخصها أن الشعرى اليمانية قد هربت مع حبيبها سهيل ( وهو ثاني المع نجم من مجموعة الكلب الكبير ) وعبرت النهر ـ نهر المجرة ـ وتركت أختها الشعرى الشامية وحدها فبكت كثيرا حزنا على أختها وجرى ماجرى لعيونها ، ولهذا يسمونها الغميصاء ، وقد ذكرها الألوسي مع اختلاف بسيط وهو أن الشعريين أختا سهيل ولقد ضرب العرب بهما المثل اذ يقولون " قد يقع بين الأخوين من الخلصاء ماوقع بين الشعريين العبور والغميصاء ، وهذا يدلل على اعتقادهم بحيوية هذه النجوم وفاعليتها ، لاسيما وأن سهيلا كان عشارا على طريق اليمن ظلوما فمسحه الله كوكبا ، كما تقول الاسطورة العربية وزعموا أنه ركض الجوزاء فركضته برجلها فطرحته حيث هو فضربها بالسيف فقطع وسطها . أي حيوية أكثر من حيوية سهيل ، ذلك النجم الذي اذا وقعت عليه عين الجمل مات لساعته كما تعتقد طيىء وقد ذكره المتلمس بقوله :

وقد ألاح سهيل بعدما هجعوا
كأنه ضرم بالكف مقبوس

وفتاك بن تميم بقوله :

كأن سهيلا حين أوقد ناره
بعلبا ، لايخفى على أحد يسرى

ذلك النجم المثير الذي شغل العرب فكثرت حوله الخرافات والأساطير ، ومنها ماذكره المرزوقي من أن سهيلا ـ الكوكب الذكر النكاح ـ طلع بأرض العراق وقابل الزهرة فضحكت اليه ـ وهي لعوب دائما ـ وقالت : ألست الذي يقال فيك أنك كنت عشتارا فمسخك الله شهابا عقوبة لك ؟؟ قال: ليس كل مايقوله الناس حقا ، فقد قالوا فيك أنك امرأة فاجرة فمسخك الله كوكبا مضيئا يحكم في خلقه ) (٣٢) ورغم أن الاسطورة تشير الى علاقة عرب الجزيرة بعرب العراق قديما واشتراكهم في النظرة الاسطورية هذه ، الا أنها أيضا تشخص سهيلا والزهرة وتشركهما بصفة واحدة هي بشريتهما قبل المسخ ، ثم الشهوانية والتأثير والحيوية والفاعلية . ذلكم هو الفكر الحضاري العربي القديم ، شخص الأجرام

السماوية فأنزلها منزلة البشر ، غير أنه أضفى عليها قوى خارقة توّهلها للعبادة والتقديس . وقد كان الحال نفسه عند البابليين ، فقد اعتقدوا أنها قوى الهية لهاعلاقة بمصائر البشر ، ولشروقها وغروبها دلالات سعادة وشؤم ، ومن ذلك أنه عندما تتلألأ نجمة " كالمشعل وقت شروق الشمس ويختفي عند الغروب ضياؤها فهذا يعني أن جيش الأعداء سيهاجم بقوة أما زحل فيدل على الخلافات العائلية وتفشي الأجرام – ولعل بعض المجتمعات الحديثة تحمل الانطباع نفسه – وعطارد دليل على زيادة المعاملات التجارية وعلو الشأن ، أما المريخ فله تأثير في عزل الملوك ووفاتهم ، وشبيه به مريخ عرب الجزيرة الذين يسمونه النحس الأصغر ويضيفون اليه البطش والقتل والقهر والغلبة بينما يرون في زحل النحس الأكبر ، وهو مصدر الخراب والهلاك والهم والغم ، أما المشتري فنجم البيع والشراء ودليل الأموال وانتعاش الحياة الاقتصادية ، بينما عطارد هو النافذ في الأمور ، كثيرالتصرف والشعرى اليمانية تبشر بموعد فيضان النيل عند المصريين ، وكانوا يعتقدون أن روح الاله تسكنها . وجميع هؤلاء الأقوام ينسبون الى الأنواء نزول المطر وعدمه ، ولقد نهى النبي عليه السلام عن ذلك الاعتقاد بقوله : ( من قال: أسقينا بالنجم فقد آمن بالنجم وكفر بالله ، ومن قال : سقانا الله فقد آمن بالله وكفر بالنجم ) (٣٤).

ولعل مما شغل هؤلاء كثيرا هو البرق والرعد والأمطار والعواصف ، ولهذه حيوية ذات حدين : سلبي وايجابي ، ولقد نسجوا حولها الأساطير والخرافات ، ونظموا القصائد والملاحم ورصدوا من خلال صورهم الفنية قلق الانسان وتوقه الأبدي لكشف الغوامض التي تكمن وراءها ، وطبيعة تفكيره وروحانياته ودوافعه وعواطفه ازاءها . وكان على الأدب والشعر خاصة ان ينتظرا فترة طويلة قبل أن ينفصلا عن الاسطورة كما يقول صاحب " مغامرة العقل الأولى " والشعر مازال تأسيسا كلاميا للوجود كما يقول هايدجر ، بينما كان الشعراء في العصور الأولى مشرعين كما يقول شيلي ، ومادام الشعر نتاج معارف الانسانية جميعا على حد قول كولردج ، فان انتاج الصورة الشعرية يرجع بشكل عام الى عمل العقل في عتمة اللاوعي كما يقرر الناقد الانكليزي E.S. Dallas ومن هنا رسم الفنان القديم صوره الفنية بلغة الرمز التي تنطق بالخبرات والمشاعر والأفكار الباطنة ليتجاوز بذلك المحلية وينطلق في رحاب الكون الواسعة ، فيأخذنا الى عالم المعاني العميقة التي تحدد اطار فلسفته ازاء الطبيعة وما وراءها،وقديما قال سقراط : ان الشعر أكثر فلسفة من الفلسفة .(٣٥).

ويحاول الأديب أن يقدم مجمل التجارب والمشاعر – فردية أو جماعية– دامجا بين ما يشاهده في الحقيقة وما تختزنه الذاكرة الجماعية ، فيمد بذلك الجماد والحركة والحيوية ، ويجعل له نوازع وعواطف ونزوات ، مكونا ايقاعا جماليا لظواهر الطبيعة وصورها المختلفة .

وسبق أن قلنا أن أكثر مالفت نظر العربي في الجزيرة وخارجها– من حيث المناخ – ظاهرة البرق والرعد وما يصحبهما من مطر ، ولعل الطبيعة الجغرافية وجهته لمراقبة الأجواء صيفا وشتاء ، وهكذا ، برزت مواقفه الايجابية والسلبية تجاه هذه الظواهر جاعلا لكل

منها تفسيرا لايخرج عن حضارة العصر آنذاك ، بل ينطلق من فكرهم الحضاري الذي يختزن بعض المعارف السماوية ومجمل التجارب الانسانية بالاضافة الى الاجتهادات الفلسفية التي انطلقت من تصوره لما يدور حوله ، ذلك الذي كان يتعذر عليه أحيانا فهمه أو تحليله تحليلا علميا وان كان بعض تحليله يحمل بين طياته المنطق العلمي وان غام مع الزمن . وبعد البرق في جميع الثقافات القديمة ـ وخاصة الشرق الأدنى ـ أما تشخيصا لاله أو مظهرا من مظاهر غضبه وأداة من أدواته عقابه ،كمابعد الرعد المصاحب له نذيرا ، ففي الأساطير البابلية يصور ( الموكل بالمطر ـ أدد أو حدد السورى أيضا ) وهو يحمل بيمينه الصاعقة على شكل خشبة معقوفة ، وبيده الأخرى حربة رمزا للبرق ، وهي نفس الصورة التي يرسمها لبيد بن ربيعة كما سنرى لاحقا . وقد تدلل على مواقف هذا العربي ـ سلبية وايجابية ازاء هذه الظاهرة ـ من خلال غزل النابغة الجعدي اذ يبدو له الجانب الايجابي من البرق وملحقاته ، فيقول :

حرة تجلو شتيتا واضحا
كشعاع البرق في الغيم سطع

ويقول طرفة :

كما سلبت أسماء قلب مرقش
بحب كلمع البرق تبدو مخايله

أما عنترة فيجعل البرق رسولا لمحبوبته اذ يقول :

ويابرق بلغها الغداة تحيتي
وحي دياري في الحمى ومضاجعي

ثم يكلفه بأن يضرم نار الشوق في قلبها ان خمدت ، ويسقي ديارها بالندى ـ والندى في كنعان وفنيقية من بنات البعل الموكل بالمطر ـ فيقول :

ويابرق ان عرضت من جانب الحمى
فحي بني عبس على العلم السعدى
وان خمدت نيران عبلة موهنا
فكن أنت في أكنافها نير الوقد
وخل الندى ينهل فوق خيامها
يذكرها اني مقيم على العهد

ثم يجعل البرق يخفق وكأنه انسان فيقول :

اذا خفق البرق في حيهم
أرقت وبت حليف السهاد

ولا ندري اذا كان أرقه هنا شوقا لعبلة أو خوفا عليها من أن يصيبها البرق بمكروه ، وكان العرب يخشونه أحيانا كما سنرى . ويتشوق امرؤ القيس للديار فيسأل صاحبه عن رؤية البرق الذي يضيء الدجى فيريه اياها ، يقول :

تبصر خليلي هل ترى ضوء بارق
يضيء الدجى بالليل عن سروحميرا

والبرق يشفي غليل عبيد بن الأبرص رغم اصطحابه سحابة سوداء منذرة :

يامن لبرق أبيت الليل أرقبه
في مكفهر وفي سوداء مركومة
فذلك البرق لوأسقى بريقه
اذن شفى كبدا شكاء مكلومة

ويستعين امرؤ القيس على البرق الذي يضيء السحاب الأبيض قليل المطر ، وكأنه يريده ماطرا :

أعني على برق أراه وميض
يضيء حبيا في شماريخ بيض

وكل ماسبق يصور البرق مضيئا مؤرقا معا ، فلم اذن يؤرق الشعراء وهو مصدر نور كما يقول امرؤ القيس :

أرقت لبرق بليل أهل
يضيء سناه بأعلى الجبل

يجيب تراثنا فيقول أن العرب في الجاهلية كانوا يرون في البرق والرعد

والمطر والسحاب قوى من قوى الكون الخفية التي يرهبونها ويحبونها في آن واحد ولذا فالشعراء يأرقون لأنهم يرون في البرق هذه القوة الخفية المقدسة ، ولو استعرضنا بعض ماجاء قي ذلك لرأينا الشعراء يربطون بين البرق وملحقاته من رعد ومطر ربطا خرافيا ، يقول امرؤ القيس قارنا صورته بصورة الياسر المقامر :

ويهدأ تارات سناه وتارة
ينوء كتعتاب الكسير المهيض
وتخرج منه لامعات كأنها
أكف تلقى الفوز عند المفيض
أصاب قطيات فسال اواهما
فوادي البدىء فانتحى للأريض

ويشير الطفيل الغنوي الى الوميض بقوله :

أصاح ترى برقا أريك وميضه
يضيىء سناه سوق أثل مركم

أما عروة فيشير الى صوت السحاب الذي انهل مطره وانتشر برقه في الأفق :

أرقت وصحبتي ، بمضيق عمق
لبرق ، في تهامة ، مستطير
اذا قلت استهل على قديد
يحور ربابه حور الكسير

بينما يعاتب أوس صاحبه لعدم مشاركته أرقه :

اني أرقت ولم تأرق معي صاحي
لمستكف بعيد النوم لواح
قد نمت عني وبات البرق يسهرني
كما استضاء يهودي بمصباح
يامن لبرق أبيت الليل أرقبه
في عارض كمضيء الصبح لماح
دان مسف فويق الأرض هيد به
يكاد يدفعه من قام بالراح
كأن ريقه لما علا شطبا
أقراب أبلق ينفي الخيل رماح

وهي صورة تشير الى ليلة ممطرة - يلمع برقها بشدة فيخترق السحاب قرب الأرض ، وهو شبيه ببرق عبيد بن الأبرص اذيقول:

فبرقها حرق وماؤها دفق
وتحتها ريق وفوقها ديمة
صاح ترى برقا بث أرقبه
ذات العشا في غمائم غر

بينما يراه في موقف آخر باسم الأنواء وهذا يريحه وان صاحبه الأرق أيضا :

أرقت لضوء برق في نشاص
تلألأت في مملأة غصاص
كأن تبسم الأنواء فيه
اذا ما انكل عن لهق هصاص

ويقول بعض الأعراب :

وأرتاح للبرق اليماني كأنني
له حين يبدو في السماء نسيب

الا أن عمر بن معد يكرب يراه في صورة مغايرة شيئا ما :

ألم تأرق لذا البرق اليماني
يلوح كأنه مصباح بان
كأن مآتما بانت عليه
اذا ما احتاج أود في جسان
فروى ضارجا فذوات خيم
فحزة فالمدافع من قنان

أما لبيد بن ربيعة فقد رأى فيه - برؤيته - ساحة معركة ، كما وجد فيه سببا لمصيبته ، يقول راثيا أخاه الذي قتلته صاعقة وكان يخشى موته فأتاه من حيث لايحتسب :

أخشى على أربد الحتوف ولا
أرهب نوء السماك والأسد
فجعني الرعد والصواعق بالفا
رس يوم الكريهة النجد
أصاح ترى بريقا هب وهنا
كمصباح الشعيلة في الذبال
أرقت له وأنجد بعد هدء
واصحابي على شعب الرحال

يضيء ربابه في المزن حبشا
قياما بالحراب وبالالال(٣٦) .

هو هذا اذن ، يرق يؤرق ويبدو كالمحاربين من الأحباش بأيديهم الحراب التي تخترق السحاب الداني ، وهي صورة تذكرنا بما كان عند عرب كنعان وفنيقية ، اذ كان هؤلاء يرون في البعل علاوة على أنه اله الخصب والربيع ـ الها للبرق والرعد والمطر ، ومن القابه (راكب السحاب) ، فصوته الرعد وسلاحه الصواعق وبهاؤه البرق والمطر نعمته ومسكنه أعالي الجبال ، عندما يتكلم تزلزل الأرض زلزالها والجبال ترتجف ، وله بنات أيضا ، فطلية بنت الندى ، وفدرية بنت الرعد ، وأرضية روح التربة وخصبها كلهم لناته ولعله جدهن ، واذن فان راكب السحب ينزل المطر باستخدام أسلحته البرق والرعد ، وكثيرا مايوصف في الملاحم الفنيقية بأنه يقاتل بأسلحته هذه فهو محارب اذن ـ كما هو في الجزيرة يحمل بيد عصا ترمز الى الخضرة ، وبيد صاعقة ترمز الى أنه رب البرق والرعد وبالتالي المطر ، فاذا احتجب ، انحبس المطر وجفت السواقي ويبس العشب ، وهو الجاعل السحاب مركبته ، الماشي على أجنحة الريح ، ثم نراه يحمل اسم أدون فيما بعد . وهذه الصورة تجعل له حيوية خارقة وفاعلية كبيرة ، فمن أين جاء هذا التصور ؟؟ يقول ابن كثير في البداية والنهاية " ميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار ، وله أعوان يفعلون مايأمرهم به بأمر ربه ، يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب جل جلاله " وفي سنن الترمذي عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ( الرعد ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله ) وروى عن علي بن أبي طالب قوله : (الرعد ملك موكل بالسحاب يسوقه من بلد الى بلد معه ... كلما خالفت سحابة بها ) وروى ابن الأنباري في كتاب الزاهر أن السحاب ملك يتكلم بأحسن الكلام ويبكي ويضحك ، والرعد كلامه والبرق ضحكه والمطر بكاؤه ، وفي رواية أخرى ان الرعد ملك موكل بالسحاب ، فصوته زجره السحاب ، والبرق مصعه والصواعق شرارة . من هنا جاءت حيوية راكب السحب ، وفاعليته التي تجسدت في البرق والرعد والصواعق ثم المطر ، ولهذا كان الخوف منه والأرق عند رؤيته ، ذلك الأرق الذي يمتزج فيه الخوف والرهبة بالاستبشار ، ولقد جاء في بعض النصوص الأدبية البابلية ان غمامة سوداء قد ظهرت ورعد فيها أداد ، وهو راكب السحب الموكل بالمطر عندهم وعند شعوب الشرق الأدنى القديم ، وكان يسير أمامه رسولاه ـ وأظنهما البرق والرعد ـ ينذران في الجبال والسهول . وتأسيسا على ذلك كله فان المعرفة سماوية ، شوهت بتقادم الزمن فالشرك . ولو استعرضنا ماجاء في القرآن بهذا الخصوص نجد الآيات التالية:

( هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشيء السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ) ( أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قالوا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم وهناك آيات تصف الصواعق بأنها عذاب والمطر بمطر السوء والعذاب ، وآيات تصف

الرياح بصفات ايجابية تشير الى الرحمة وان كانت في آيات أخرى تشير الى العذاب

وبعد ، أفلا يكون هؤلاء قد تصوروا ميكائيل بعلا ، ثم جعلوه الها والملائكة – كما أشرنا – كانت عندهم أوراح معبودة ، فتصوروا هذا التصور وجعلوا السحاب والبرق والرعد والصواعق أسلحته أو جنوده أو مظهر سلطته ولعلهم فهموا أنه اله الربيع الذي دعاه العراقيون القدماء ( تموز ) ، ما دام موكلا بالقطر والنبات كما رأينا أعلاه وحيث أن المطر ينقطع في أوقات معينة فان الربيع والنبات يموتان ، فتصوروا – من ثم – موت ( تموز – أدون – بعل ) راكب السحب واله المطر والبرق والرعد ولهذا لابد أن يبكي عليه ويندب وتقام الابتهالات لعودته .

والاعتقاد باله الخصب – راكب السحب – كان سائدا في فنيقية وكنعان وبلاد وادي الرافدين ووادي النيل وتتضمن العبادة البكاء والعويل والحزن على موته في الصيف عند موت النبات ، ويستمر الحزن حتى يعود بعل الى الحياة من جديد وبعودته تكثر الأمطار ويحصل الخير ، وقد جعلوا الدعاء والابتهال من أسباب عودته . وقد عرف عرب العرب الابتهال والدعاء طلبا للمطر ، وعن هذا يحكي لنا الجاحظ أن العرب في الجاهلية كانوا اذا اشتد الجدب واحتاجوا الى الأستمطار اجتمعوا وجمعوا ماقدروا عليه من البقر وعقدوا في أذنابها وبين عراقبها السلع والعشر ، ثم صعدوا بها في الجبل معتقدين أن الجبل سكن الموكل بالمطر كما في بابل وكنعان – وأشعلوا فيها النيران وضجوا بالدعاء والتضرع ، فكانوا يرون ذلك من أسباب السقيا . يقول أمية بن أبي الصلت :

عاقدين النيران في ثكن الأذناب
منها لكي تهيج البحورا
فرآها الاله ترسم بالقطر
وأمسى جنابهم ممطورا
فسقاها نشاطه واكف النبت
منهم اذ رادعوه الكبيرا
سلع ما ومثله عشر ما
عائل ما وعالت البيقورا

وقيامهم بالابتهال مفهوم ، وان كنا لانفهم علاقة ذلك بالبقر الا أن يكون ذلك طقسا قديما غاب عنا أصله مع تقادم الزمن .

والابتهال جائز ومستحب في كل الأديان ، ألم يرد عن النبي عليه السلام أنه دعا الله أن يغيثهم بالمطر فثار السحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل من منبره حتى رأى أنس المطر يتحدر من لحيته ، كما ورد في الصحيحين ، وقد ذكرت عائشة رضي الله عنها أن الناس اشتكوا للنبي عليه السلام ( القحط ) فدعا فأنشأ الله ( سحابة فرعدت وبرقت ثم أمطرت )(٣٧) ان مثل هذا الابتهال لابد وان يكون قد صدر من أنبياء قبله عليهم السلام ، ومع الزمن تشوهت المعرفة السماوية والابتهال المشروع ، فعمد العربي القديم الى الابتهال الى ميكائيل الموكل بالمطر والبرق والرعد والنبات فجعلوه الها يركب السحب ، يرعد فتزلزل الأرض زلزالها ، ثم يغيب فتموت الحياة وتجف الزهور ويؤمر بعل – راكب السحب – با نزال المطر بعد ذلك ، لتعود الحياة الى الأرض والنبات كما تقول الملحمة الكنعانية " تشققت أثلام الحقول أيتها الشمس ... ليجر البعل عيون الأرض المحروثة وعندها " ينجو النبت على يدي البعل المحارب ، اذ يتحنن عليه بمطر السحاب وينزل مزنا غزيرا " او يبتهل الملك

أقهات فيقول " أيتها السحب انزلي مطرا في فصل الحر ، أيتها الغيوم أمطري في القيظ ، ولينزل الندى على العنب سبع سنوات حبس البعل بل ثماني سنوات حبس راكب السحب طله ومطره ... وأمواج البحار وعذوبة ( قرقعة ) صوت البعل ( الرعد ) ، ويدل بقية النص على تجاوب السحب بفعل الدعاء ، كما تبين أن القحط أو موت الطبيعة كان في الصيف ، وذلك طبيعي لأن البعل – راكب السحب الموكل بالمطر غائب ، وقبل أن يغيب يأمره الموت بالتالي : " خذ سحبك ورياحك ودلاءك وامطارك معك وغلمانك .. خذ فدرية بنت النور ، وطلية بنت المطر " وعند ذلك يتوجه الى ( مقر الأموات ) هكذا اذن يموت الربيع وتقام له طقوس الوفاة ويسطر الشعراء في قصائد الرثاء حزن العربي القديم ، وحزن الطبيعة كلها و" ترفع صوتها في النواح ، وهي تنوح نوحها على الحشيشة التي لاتنمو في تربتها ، تنوح نوحها على القمح الذي لاينبت في سنابله ... طفلة اصابها التعب فخارت قواها ، تنوح على نهر عظيم حيث الصفصاف لاينمو تنوح على مروج لانبات فيها ينمو " . هذا هو عالم بعل الموكل بالمطر والبرق والرعد والربيع ، بين موت وحياة يتلون بحيوية قوية وفاعلية خارقة وحركة يصورها الأدب والشعر فنحسها نابضة بين السطور ، تعبر – من خلالها الزمن ، لتصل الينا تراثا قوميا وفكرا حضاريا لون الأدب العالمي بلوحات رائعة من الفن الأصيل .

ومن الجدير بالذكر أن عرب الجزيرة خاصة ببطن الجزيرة في الواحات ومساقط الأمطار ، كانوا يعرفون البعل ، وهو هبل الذي كان على بئر في بطن مكة ، ولعل موقعه هذا يشير الى علاقته بالزراعة والخصب عندهم وكانوا يقسمون به ويضربون عنده القداح ، مما يشير الى صلته بالقدر والنصيب أيضا . ويذكر نولدكه أن عرب الجزيرة العربية أخذوه من عرب شبه جزيرة سيناء الذين كانوا يعرفونه باسم ( بعلو) وهي صيغة بابلية تدل على أن بابل هي الأصل (٣٨). ومن الطريف أن بعضهم في حضرموت – عن رواية لاحدى طالباتي – مازال يقول" أعن هبل "عند رفع شيء ثقيل ، لغوا لا اعتقادا ، ولعل ذلك يشير الى عمق هذا الاعتقاد القديم الذي بقيت آثاره في بعض التعبيرات دون وعي لما يقال . ومن كل ماسبق نستنتج أن الموكل بالمطر كان محل تبجيل العربي داخل الجزيرة وخارجها .

والأديب حين يضع مشاعره في مجازات ذات دلالات انسانية عميقة ، يستغل الطقوس والاشارات الخرافية بالاضافة الى المشاهد الطبيعية ،ليوصل التجربة الينا في تعبير شعري جميل ، يؤثر فينا ويمتعنا في الوقت نفسه ، ومما صوره الأديب القديم بأدواته الجمالية ، الأرض ، بوصفها النموذج الأمومي الأول ، فهي الينبوع الغامض الذي لاينضب معينه ، اذ لايفتأ يتدفق بالحياة ، ولذا ، فقد وصفت في بابل وآشور بالجسد الذي يحكم العالم والمبدأ الفعال في الميلاد والخصوبة والتجدد الدائب لنمو النبات ، وبدت لهم الملكة الرفيعة القدر ، ومن أسمائها عندهم ( ماما ) و(مامي) ، وتحت هذا الاسم كانت تقوم بخلق كائنات ،وتقابلها عند الكنعانيين ( عشيرة أم الجميع ) ويدل الأدب البابلي على أن الأرض ولدت من المياه البدئية ، كما تشير قصة الطوفان الى تمرد رحم الأرض ،فلم تنبت البقول ولا الحبوب " وتؤكد ملحمة جلجامش على حيوية الأرض حين تستجيب للسماء عندما

أرعدت ، بينما تشير أساطير بابلية أخرى الى فعاليات الأرض وحيويتها من حيث بث الحياة في المزروعات ، ومن حيث تمتعها بصفات وسلوكيات تشبه الى حد بعيد السلوكيات البشرية من حيث الزواج والولادة وتقلبات المزاج والصحة ، انطلاقا من مبدأ أن كل شيء في الوجود يتمتع بحياة وحيوية بما فيها الأرض ، اما أرض مصر فتزلزل من أجل موت العظماء وهي فكرة انتشرت في شبه الجزيرة العربية كما سنرى . ويذكر بعض الدارسين أن أقوام الجزيرة العربية قد قدسوا الأرض قبل مجيئهم الى وادي الرافدين ، لنفس السبب الذي قدسوها من أجله في مهاجرهم الجديدة في العراق وفنيقية ومصر ، وقد اطمأن قدماء المصريين الى هذا الأمر كما اطمأنوا الى أن الأرض والسماء قد كانتا زوجين من ذكر وانثى .

ومن الطريف ان بعض علماء العصر الحديث مازال يقول بأمومة الأرض ، اذ يقول أحمد زكي " أمنا الأرض تلد طفلا انه القمر .. والذي اقتطع هذه القطعة من الأرض هي الشمس " ثم يشير الى أن تركيب القمر من عناصر أرضية ، ورغم أنه يقولها وهو مدرك تماما أن الأرض ليست أما للقمر أو غيره ، الا أنه يشير الى تغلغل هذه الفكرة الجماعية ، بحيث أصبح الاعتقاد تعبيرا أدبيا يدلل على رسوخه في وجدان العربي القديم استخدمه أمية بن أبي الصلت – وكان متألها – بقوله :

والأرض معقلنا وكانت أمنا
فيها مقابرنا وفيها نولد
منها خلقنا وكانت أمناخلقت
ونحن أبناؤها لو أننا شكر

ولقد أضفى عليها عرب الجزيرة صفات وسلوكيات بشرية أيضا فقالوا بتأثرها بموت العظيم ، كما هو الحال عند الخنفساء راثية :

دارت بنا الأرض أو كادت تدور بنا
يالهف نفسي فقد لاقيت صنديدا
دارت بنا الارض وانقضت مخارمها
حتى تخاشعت الأعلام والبيد

بل هي تضطرب بزلزال فتخر الجبال معها حين يقتل أخوها :

فخر الشوامخ من قتلـه
وزلزلت الأرض زلزالها

وتدور عند بعض شعراء كنده وهو يمدح عمرو بن هند ، مصورا هيبته :

تكاد تميد الأرض بالناس ان رأوا
لعمرو بن هند عصبة وهو عاتب

بينما تخف عند النابغة مادحا النعمان:

تخف الأرض ان تفقدك يوما
وتبقى ما بقيت بها ثقيلا

أما أرض أوس فتمرض :

ترى الأرض منا بالفضاء مريضة
معضلة منا بجمع عرمرم

وتبكي أرض لبيد عند رحيله :

بكتنا أرضنا لما ظعنا
وحبتنا سفيرة والغيام

ولكن أرض المهلهل كأرض الخنساء تميل وتزول جبالها :

نعى النعاة كليبا فقلت له
مالت بنا الأرض أو زالت رواسيها

أما عبد الله بن عنمة فيعاتب الأرض لأنها ضمن بسطام بن قيس في رحمها :

لأم الأرض ويل ما أجنت
غداة أضر بالحسن السبيل

حيوية منوعة وفاعلية بشرية تتدفق احساسا ومشاركة . وبعد ، فهل في هذا بعض الحقيقة ؟؟ ان أبا حامد الغزالي يؤكد ان بعض الأرض يتمتع بالفاعلية نفسها ، وفي هذا ينقل عن النبي عليه

السلام قوله : " يقول القبر للميت حين يوضع فيه : ويحك يا ابن آدم ماغرك بي ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ... ان الأرض هنا تتكلم ، وفي آخر ترفض من لا ايمان له اكراما للنبي عليه السلام ، اذ ورد عن أنس رضي الله عنه قصة النصراني الذي أسلم وكتب للنبي ثم ارتد فمات فدفن فلفظته الأرض مرات ثلاث ، والخبر يذكرنا بقول الشنفري :

لاتقبروني ، ان قبري محرم
عليكم فابشري أم عامر

وحيث أنه كان معلوكا خارجا عن نظام القبيلة ، فقد خلع ، واذن ، يحرم مما يتمتع به الفرد الصالح في المجتمع وهو كرامة الدفن . وكان عدم الدفن في بابل وأشور يعني حرمان الميت من الاستقرار في العالم السفلي ، فها هي ذي الذاكرة الجماعية تسعف الشنفري فيكون صورته الفنية ويضمنها فكرته عن هذا الموقف الحضاري . هذه هي فاعلية الأرض ولنستمع - تأييدا لها - الى مايقوله صاحب البدء والتاريخ ( قيل الأرض ملك ) ولكنه يردف فيجعل ذلك مجازا . ولنخرج من هذا ، ونصل الى نتيجة ، نستقرئ كتاب الله الكريم لنجد الآيات التالية ( ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ) ( وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء ) فالأرض هنا تخاطب وتؤمر فتسمع وتطيع وهي ترتجف وتزلزل وتحدث وتنبت النبات وتهتز وتنفطر ( يوم ترتجف الأرض والجبال) و ( اذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الانسان مالها يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ) ثم هي تبكي ( فما بكت عليهم السماء والأرض ) وتستعظم الكفر بالله ( تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الجبال وتخر الجبال هدا ، ان دعوا للرحمن ولدا ) وذلك لاقرارها بعبوديتها لله ، بحانه ، مسبحة بحمده ( تسبح له السموات والأرض ) وهي تمتثل لأمر الله ( حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أونهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) وفي النهاية ،فان الانسان نشأ منها بأمر الله عز وجل ( هو أنشأكم منها ) ( ٣٩ ) .

وبعد ، أفلا يدل هذا كله على حيوية الأرض وفاعليتها ، كما يدل على أن هؤلاء العرب قد وصلهم بعض المعارف السماوية فشوهها بعدهم عن زمن التبليغ .

وهكذا تأخذنا حيوية الطبيعة الى اللاوعي الجمعي لنتعرف على مايخفيه من رؤية حضارية تجاه الجبال . ومما نجدفي صفحاته ، مشاعر العرب القدماء تجاه الجبال ، فقد تعلق الفنيقيون والكنعانيون بالمرتفعات المهيبة فانسجمت معها نوازعهم المحبة للسمو ، وتصوروا كالبابليين - أنها مسكن لمعبوداتهم أما عرب الجزيرة فقد نسجوا حول مظاهر الطبيعة ومنها الجبال قصصا وأساطير وجعلوها تتفاعل مع مواقف البشر وتتعاطف معهم في مآسيهم ، فها هي ذي الخنساء تراها تخر لموت أخيها وتعاطفا معها :

فخر الشوامخ من قتله
وزلزلت الأرض زلزالها
ضاقت بي الأرض وانقضت مخارمها
حتى تخاشعت الاعلام والبيد

بل تراها تبكي :

لما رأيت البدر أظلم كاسفا
أرن شواذ بطنه وسوائله

رنينا ، وما يغني الرنين وقد أتى
بموتك من نحو القرية حامله

أما حيوية الجبال عند النابغة فتتمثل بزوالها عند موت العظيم ، اذ يقول راثيا وكأنه لايصدق خبر موت حصن لأن الجبال لم تزل في مكانها ، وذلك مخالف للعادة في مثل هذه المواقف :

يقولون حصن ، ثم تأبى نفوسهم
وكيف بحصن ، والجبال جنوح
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزل
نجوم السماء ،والأديم صحيح

الا أن المثقف العبدي يراها مسخرة مطيعة لأمر الله :

ولو علم الله الجبال عصينه
لجاء بأمراس الجبال يقودها

ولعل هذا المضمون يقترب من المفهوم الاسلامي لطبيعة الجبال من حيث تسخيرها الا أنه يشير في الوقت نفسه الى حيويتها لأن الطاعة تأتي من عاقل ، وقد ورد ما يفيد ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى ( وسخرنا مع داود الجبال يسبحن) ( انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق ) فهي تسبح وتسجد أيضا ( ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والدواب ) وهي تتحرك ( وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ) وليس أكثر من ذلك حياة وحيوية ، وهي ترتجف ( يوم ترتجف الأرض والجبال ) وتخشع ( لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ) ، وحين يكفر بالله تنشق الأرض وتخر الجبال ( تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا ) ،وأخيرا تخاف من حمل الأمانة خشية من عدم ايفائها حقها كما يجب ، فيحملها الانسان لجهله وغروره ( انا عرضنا الامانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ) .

ان ماورد في القرآن هنا يؤكد على حيوية الجبال ووجود نوع من الحياة والتفاعل فيها ، وان كان ذلك بأمر الله وليس لموت أحد أو تعاطفا مع موقف انساني ، الا ماجاء في هذه الاستجابة كرامة للنبي عليه السلام حين رفضه أهل مكة وآذوه ، ففي الصحيحين عن عائشة انها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم ( هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟؟ قال : لقد لقيت من قومك مالقيت ، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، اذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن كلال فلم يجبني الى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق الا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فاذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت اليها فاذا فيها جبريل فناداني فقال : ان الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليه ، وقد بعث الله اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي ، ثم قال يامحمد ، فقال ذلك فيما شئت ، ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين – جبلا مكة أبو قبيس والأحمر وجبلا منى – فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من اصلابهم من يعبد الله لايشرك به شيئا ) . ويلاحظ من الحديث أن جبريل عليه السلام جاء بسحابة ولعل تلك المعلومة كانت معروفة قديما فدخل في روعهم أن كل الملائكة تأتي في السحب ومن هؤلاء ميكائيل الذي أصبح عندهم ( بعلا – راكب السحب ) واعتقد ان ذلك ليس مستبعدا . أما قصة ارتجاف جبل

أحد تحت قدم النبي عليه السلام فانها معروفة ،وقد خاطبه عليه السلام حينها ( أثبت أحد ، فانما عليك نبي وصديق وشهيدان ) (٤٠) واذن ، فان عرب المهاجر القديمة مع عرب الجزيرة كانوا يعرفون ان وراء الجبال أو فيها قوى غيرمرئية فاعلة وان لم يعرفوا ماهيتها، أولعلهم حسبوها آلهة وهي في الأصل ملائكة مسخرة بأمر الله لتدبير شؤون السموات والأرض كما يشاء سبحانه ، علاوة على أن هؤلاء كانوا يعتقدون أن الملائكة آلهة ، وقد صحح لهم القرآن هذه الرؤية القديمة المحرفة وذلك بقوله تعالى ( ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ). وهكذا نرى أن تصورهم لحيوية الجبال ـ لكونها جزءا من الطبيعة ـ لم يأت من فراغ وان اختلف عن الأصل قليلا وانحرف عن المعرفة الدقيقة لهذه القوة والفاعلية وعن مصدرها الحقيقي .

أما حيوية الأشجار وتفاعلها مع بعض المواقف الانسانية ، فتتلخص في ان الانسان في الشرق الأدنى والعالم القديم كله كان يؤمن ان هناك قوى خفية ولعلها روح الهية تسكن في الأشجار ولها فاعلية ، فقد أعطى التفكير المصري على سبيل المثال حياة لكل شيء في الكون ،مثله مثل العربي في شبه الجزيرة والمهاجر الأخرى ، ففي فنيقية كان لشجر الأرز صفة القداسة ، وقد جعلوه دواء للتطهير والأمراض ، وكان الكنعانيون يقدسون بعض الأشجار ومنها شجرة الجميز واعتقدوا أنها تزيل عنهم الآلام وتشفي من الأمراض ، وجعلوا الصنوبر من مقدسات أدونيس الموكل بالربيع والمطر عندهم ، ونسبوا لنبت اللفاح Mandrake قوة سحرية في اجتذاب القلوب ، ولعل النخيل كان أهم الأشجار التي كانت تلقى الاحترام والتقديس على مدى اتساع العالم العربي القديم ، فقد تصوروا ـ وخاصة في البادية وجود قوى روحية كامنة مؤثرة في العالم والأشجار والأحجار ، فتقربوا اليها بالنذور والقرابين معتقدين ان لهذه القوى أثرا خطيرا في حياتهم ، ولقد جاء في خبر انتشار المسيحية بنجران أن أهلها كانوا " على دين العرب يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم ، لها عيد في كل سنة ، فاذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلي النساء ثم خرجوا اليها فعكفوا عليها يوما " ، وقد بقي بقايا من هذا التصور حتى أيام الفاطميين في مصر ويرى علي البطل أن الدمى والنخيل من رموز الشمس الأم ، بينما يرى شوقي عبد الحكيم أن النخلة هي شجرة عشتروت الكنعانية الفنيقية ، وهي عشتار بابل والجزيرة وكانت تمثل الزهرة المعبودة آنذاك ، كما يرى أن الساميين جميعا قد وحدوا بين النخلة وعشتار هذه واعتبروها شجرة الحياة في جنة عدن ، كما كانت النخلة شجرة الميلاد أو شجرة العائلة عند كل شعوب عرب آسيا في مصر وبابل وفنيقية والجزيرة العربية ، ويؤكد هذا أن العزى الزهرة كانت تعبد بشجرة مقدسة أو هي نفسها شجرة عند عرب الجزيرة ، بينما تذكر بعض روايات الاخباريين العرب عن العزى أنها تمثل ثلاث شجرات سمرات أو أنها كانت شيطانة تأتي تلك الشجرات وقد ذكرنا سابقا بعض هذا الخبر عندما هدم خالد بن الوليد الصنم الذي يمثلها وقد ذكرت كثيرا في شعرهم ومنه ماقاله أوس بن حجر مقسما بها :

وباللات والعزى ومن دان دينها
وبالله ، ان الله منهن أكبر

ويقول درهم بن زيد الألوسي يذكر بالعزى :

اني ورب العزى السعيدة والله
ه الذي دون بيته سرف

وصفة السعادة كانت تطلق على العزى الممثلة للزهرة ، اعتقادا من هؤلاء انها الهة الخير والاخصاب واللهو والسعادة وقد سماها المنجمون السعد الأصغر تمييزا لها عن المشتري ( السعد الأكبر ) ولما كانت الزهرة سكنا للأرواح ، وهم الملائكة عندهم ، فان عبادتهم لها هي عبادة للملائكة ، واذا كان الأمر كذلك ، فكيف نوفق بين هذا والرأي القائل بأنها كانت شيطانة ؟؟ يذكر البهبيتي نقلا عن الألوسي أن العرب كانوا يعبدون الملائكة وأن منهم من كان يخلط بينهم وبين الجن ، وأن هؤلاء هم الكثرة ، وهم بالجن مؤمنون ، والشياطين من الجن ، وكان أهل الجاهلية يسمون الملائكة جنا لاستتارهم عن العيون ، واذن فالجن عندهم اسم عام يشمل الملائكة فيما يشمل من دلالة ويقول ابن عبد البر: ( اذا ذكروا الجن خالصا قالوا جني ، فان ارادوا أنه ممن يسكن مع الناس قالوا عامر والجمع عمار ، فان كان ممن يعرض للصبيان قالوا أرواح ، فان خبث ولؤم قالوا شيطان فان زاد على ذلك قالوا مارد فان زاد على ذلك وقوى أمره قالوا عفريت فان طهر ولطف وصار خيرا كله قالوا ملك ) ( ٤١ ) . وكونها متكفلة بالخصب والحب والحرب ، فانها بذلك تجمع بين نقيضين يجعلانها مرة روحا ملائكية ، وأخرى شيطانية ، وكلاهما روح تستحق العبادة عندهم .

ومما يتمتع بحيوية خاصة وفاعلية من الشجر عندهم ، ذات أنواط تلك التي ذكرها ابن اسحاق في سيرته وقد نهى النبي عنها حين طلب منه بعض المسلمين ان يكون لهم ماكان لأهل الجاهلية منها . أما شجرة السدر فكانوا يجلونها ويضعون منها على موتاهم ولقد ذكرها امرؤ القيس في رثائه متأثرا لعدم غسل المرثي بالسدر :

ألا باعين بكي لي شنينا
وبكي لي الملوك الذاهبينا
فلم تغسل جماجمهم بسدر
ولكن بالدماء مرملينا

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ماجاء عن أم عطية الانصارية رضي الله عنها قالت : ( دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين توفيت ابنته فقال اغسلنها ثلاث أو خمسا أو أكثر من ذلك ان رأيتن ذلك بماء وسدر واجعلن في الآخرة كافورا أو شيئا من كافور) كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال في الذي سقط عن راحلته فمات ( اغسلوه بماء وسدر ) والغسل بهذا الاسلوب من المندوبات ويعلق صاحب سبل السلام على ذلك بقوله ( والحكمة فيه أنه يلين جسد الميت ، وأما غسله الكافور فظاهره انه يجعل الكافور في الماء ولا يضر تغيره به والحكمة فيه أنه يطيب رائحة الموضع لأجل من حضر من الملائكة وغيرهم مع ان فيه تجفيفا وتبريدا وقوة نفاذ وخاصية في تصليب جسد الميت وصرف الهوام عنه ومنع ما يتحلل من الفضلات ومنع اسراع الفساد اليه ، وهو أقوى الروائح الطيبة في ذلك ، وهذا هو السر في جعله في الآخرة ) وبعد ، أفلا يكون العرب قد عرفوا هذه الخصائص في السدر من خلال التجربة ، فتوهموا - انطلاقا

من طفولة الفكر الحضاري – ان في هذا النوع من الشجر قوة خفية ذات فاعلية وحيوية جعلتهم يقدسونها قديما، علاوة على اعتقادهم بحيوية الأشجار بوجه عام ؟؟ لعل ماجاء في بعض الأخبار ما يؤيد هذه النظرة ، ففي صحيح مسلم من حديث جابر قال : ( سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلنا واديا أفيح ، فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي حاجته فاتبعته بأدواة من ماء ، فنظر صلى الله عليه وسلم فلم ير شيئا ، فاذا شجرتان بشاطىء الوادي ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم الى احداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال : انقادى علي باذن الله فانقادت معه كالبعير المخشوم الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى ، فأخذ بعض أغصانها فقال : انقادى علي باذن الله فانقادت كذلك ... الخ ) وفي الترمذى من رواية الحاكم في صحيحه عن علي رضي الله عنه قال : ( كنت مع رسول الله عليه وسلم بمكة فخرجنا في بعض نواحيها ، فما استقبله شجر ولا جبل الا هو يقول : السلام عليك يارسول الله ) وقد سبق وان سمع أبو ذر الغفاري تسبيح الحصى بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأيدي أبي بكر وعمر وعثمان وكان لها حنين كحنين النحل ، أفلا يكون الشجر أكثر حيوية من الحجر ، أي نعم ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه في قصة حنين جذع النخلة التي كان يخطب النبي عندها وقد تركها الى المنبر فصاحت حتى كادت أن تنشق فنزل النبي صلى الله عليه وسلم حتى أخذها فضمها اليه فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت (٤٢). ولئن كان ذلك كله من معجزات النبي عليه السلام الا أن خطابه الشجرتين وانقيادهما له وسلام أخريات عليه ، كل ذلك يشير الى حيوية معينة في الأشجار كغيرها من المخلوقات ، وقد عرفها النبي عليه السلام وحيا ، وعرفها العرب قبله بطريقة أو بأخرى ولكنهم أخطأوا فهم بعض هذه الحقائق كما أخطأوا الهدف . ويؤكد القرآن الكريم هذه الحيوية بقوله تعالى ( ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والشجر ) ويقول عز وجل ( والنجم والشجر يسجدان ) ، ومن هنا نرجح أن العرب قد وصلهم شيء من معرفة سماوية عن هذه الحيوية لاسيما وأن بعضهم ظل الى بداية عصر الاسلام على دين ابراهيم عليه السلام وكانوا يمارسون شعائر قريبة من شعائر الاسلام ، مما يدل على أنهم كانوا على دراية بأمور التوحيد واخبار الكتب السماوية السابقة .

ان القيم الحضارية – لاشك – تكمن في الأنماط التعبيرية التي تتصل بفكر الانسان العربي الذي كان يسترفد رواسب عريقة تكمن في لاوعيه وتعود الى منابع الفكر الأولى ، فيكشف بذلك عن طاقة جمالية كامنة فيما يوميء اليه باستخدام صيغ فنية ذات أبعاد انسانية عميقة . كم يصر الفكر الحضاري العربي على هذه الحيوية في الطبيعة ، ويؤكد في تعامله معها على أن فاعليتها ملموسة ، تبدو في كل تصرف ، وان كان تقديسهم لهذه القوى ذات الحيوية منطلقا من احترام وتبجيل أكثر من كونه عبادة لاتعترف الا بهذه الحيوية والقوى الخفية اذ يشير القرآن الى أن تقربهم لها انما هو تقرب من الله عز وجل ، ولم يعلموا انهم – بذلك – دخلوا في الشرك بالله تعالى عما يشركون ، يقول تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات و الأرض وسخر

الشمس والقمر ليقولن الله ) فان سئلوا عن سبب عبادتهم أو تقديسهم لهذه المخلوقات برروا ذلك بقولهم ( ليقربونا الى الله زلفى ) (٤٣)ظنا منهم أنها تشفع لهم عند الله كما أشرنا. ذلك هو استيعابهم للوجود ، يختلط الوهم فيه بالحقيقة ، وذلك هو تصورهم للوجود قوى ميتافيزيقية تتحكم فيه ، وتحل في كل جزء ، واذن ، فلا مهرب من الخضوع لها والتعبير عن هذا الخضوع بالرموز المتصلة بالفكر الحضاري هذا، لنصل في النهاية الى تراكمات تراثية تشكل الكيان الفني للأديب الذي لم يغض الطرف عن حيوية الجماد ، فعبر عنه انطلاقا من هذه المواقف الحضارية المعقدة ليؤكد في النهاية أن الجماد أيضا يتمتع بحيوية وفاعلية فائقة تسرى في كثير من المواقف الانسانية وتؤثر فيها وتوجهها . فالحب والمرض والسفر والرزق وغيرها ، كلها تتأثر بفاعلية هذا الجماد ، كما يتأثر الجماد بالمواقف ولنر بعض هذا التصور الخرافي في كنعان أولا ، في ذلك الموطن العربي القديم الذي سطرت ملاحمه صورا عديدة لهذه الحيوية ، فالحجر فيها يهمس ، والجبل يبكي والرايات المقدسة تنتحب كماينتحب الفرات في بابل ، ويسمع الجدار ويفهم ويستوعب ماسمع ، والكوخ يتلقى الخطاب ويبطل الملح مفعول السحر ، هكذا تقول النصوص البابلية " أيها الملح ، يامن خلقت في مكان نظيف ... ارفع عني السحر والأديب هنا يقر بأن الملح مخلوق ومع ذلك فله فاعلية يشاركه فيها القمح تلك الفاعلية التي تجعل الانسان يلجأ اليه وكأنه كائن حي يخاطبه قائلا : (ايها القمح .. أصلح بيني وبين الهي الساخط) وعجيب أمر هذا الوسيط الذي لديه مقدرة اصلاح ذات البين بين العابد والمعبود وأعجب منه أمر القصبة التي تأتي بأعاجيب الكتابة ذات المضامين الفذة لتحل قوتها في أخرى ، تفرز من المعاني مايدل على حيوية خارقة وفاعلية محيرة . هذه هي حيوية الأشياء عند عرب بابل ، كل شيء فيها يتمتع بارادة خاصة ، ويمثل شخصية ذات ملامح حيوية تقف على قدم المساواة مع الانسان في وجودها العيني ، فالظواهر الطبيعية عنده تجارب انسانية والعالم زاخر بالحياة ، وهو في هذا مثل المصري القديم الذي كان يرى في كل شيء روحا مؤثرا وهو والبابلي يشتركان في الاعتقاد بأن الطبيعة هي تجلي الالوهية بكل ظواهرها وأسرارها (٤٤).

أما عربي الجزيرة العربية ، فيقف مأخوذا أمام كل جماد متوهما ان له حيوية عجيبة لاتقف عند حد فالملح عنده - شأنه شأن البابلي - خطير ، بحيث يتعاهد مع غيره ويتعاقد عليه ، وفي ذلك يقول شتيم بن خويلد الغزاري :

لايبعد الله رب العباد
والملح ماولدت خالدة

أما الأحجار ، فقد رسم لها صورا خيالية بحيث اتخذ بعضها رموز الآلتهه فصنع منها الأصنام والتماثيل التي تجسد من جهة نظره - روح المعبود وتكرس سيادته ، ومن هنا كان القسم به جزءا من الاقرار بهذه السيادة فها هو ذازهير يقسم بها :

حلفت بأنصاب الأقيصر جاهدا
وما سحقت فيه المقاديم والقمل

ومعاوية بن زهير :

فأقسم بالذي قد كان ربي
وأنصاب لدى الجمرات مغبر

والنابغة الذبياني يشاركهما :

فلا ورب الذي قد زرته حجبـــــــا
وما هريق على الانصاب من جسـد

ويطوف المشقب العبدي مع الطائفين :

يطيف بنصبهم حجن صغـــــــار
فقد كادت حواجبهم تشيـــــب

ويتحكم الاعتقاد بحيوية هذه النصب في سلوكيات العربي ، فاذا حارب اصطحبها تنصره ، كما يفعل يغوث ، يقول شاعر مذحجي ، انه هو الذي يقودهم :

وسار بنا يغوث الى مـــــراد
فناجز ناهم قبل الصبـــــاح

والمناجزة الصباحية خطيرة وقاتلة لأنها ترتبط بنجمة الصباح المحاربة ، تلك التي رأينا من حيويتها مارأينا ، وهم في هذا كعرب بابل اذ كان اصطحاب أصنامهم في الحروب نوعا من التشجيع لهم والمؤازرة النفسية ، ولذا كان استيلاؤهم على أصنام العدو اذلالا له . وقد أشارت بعض الروايات الى أن أحد العرب قدم لملك بابلي كان قد غزا بلاده ، الهدايـــا مسترحما اياه ان يعيد اليه أصنامـــه فرق له وفعل .

وفاعلية أصنامهم تتدخل فـــي مواقف حياتية أخرى ، يقول سادن فراض صنم سعد العشيرة من مذحج :

فراض أشكو نكد الجـــــوراح
من طائر ذي مخلب ونابـــــح
وأنت للأمر الشديد الفـــادح
فافتح فقد أسهلت بالمفاتـــح

ولعل أحدهم استجار بها فلم يجد منهـــا استجابة ، أو فاعلية ، فيقول :

أتينا الى سعد ليجمع شملنـــا
فشتتنا سعد فلا نحن من سعـــد

وفاعلية أصنامهم دفعتهم الـــــى استشارتها في المواقف لمعرفة المغيبـــات يقول طرفة :

أخذ الأزلام مقتسمـــــــا
فأتى أغواهما زلمـــــــه
عند أنصاب لها زفـــــــر
في صعيد جمه أدمـــــــه

وضرب الأقداح يشير الى خضوعهم لهـــا فلها الرأى الفصل ، بحيث تزاحم رؤوسهم على الرئاسة ، كما يقول شملة بن أخضر الضبي مادحا :

رئيس ما ينازعه رئيـــــس
سوى ضرب الأقداح اذا استشـــارا

ومن الطريف أن عرب بابل كانـــــوا يستعملونها أيضا لاستطلاع رأي الآلهـــة في مناسبات أو قضايا معينة ، رغم أنها لاتكون صادقة في مشورتها أحيانا حسبما يرى امرؤ القيس اذ صادف أن ضرب بالقداح مستشيرا ذا الخلصة في الثأر لمقتل أبيه فخرج الناهي ، فسبه قائلا :

لو كنت ياذا الخلص الموتورا
لم تنه عن قتل العداة زورا (٤٥).

وهو في نظرهم الذي يأمر القداح لكشـف المغيبات ، فان لم يصنع ، فعلى القـداح حينها بالمهمة :

أنا اختلفنا فهب السراحـــــا
ان لم تقله ، فمر القداحـــــا

والموقف هنا منطلق من اعتقادهم بـــأن الأرواح الخفية كانت تسكن الأصنام وتحل الأوثان والتماثيل ، وكانوا يدعـــون أنهم كانوا يسمعون من أجوافها همهمة وأصواتا يحسبها عامتهم شياطين ، بينما يراها عقلاؤهم روحانية الملائكة أو الأجرام العلويـــة . وفي هذا يورد ياقـــوت الحموي خبر وجود شياطين في صخرة اللات وفي العزي يكلمان الناس وقد اعتقـــد المصريون قبلهم بوجود قوى غير منظورة وذات سلطان في التماثيل ، وعليه ، فقـد كانوا – اذا أرادوا ايذاء أحد – يكتبون

على قدور أو تماثيل صغيرة تمثل العدو بعض اللعنات ثم يحطمونها، وهو ماكان لدى عرب الجزيرة أيضا، بل كان الأخيرون يفعلونها اذا أرادوا لضيف ثقيل ألا يعود يقول أحدهم :

كسرنا القدر بعد أبي سواح

فعاد وقدرنا ذهبت ضياعا

والأمر نفسه كان عند عرب بابل . ويذكر عبد المجيد عابدين أن صناعة التماثيل عند الساميين – ومنهم العرب – كان من أهم أغراض هذه الصناعة ، فالبابليون افرغوا جهدا ضخما في صناعتها لأغراض سحرية تدفع الناس الى اللجوء الى التعاويذ والرقى لاستجلاب رضى هذه التماثيل وللسيطرة على العوامل المشئومة التي تكتنفهم من كل جانب ،ولذلك كان يعمد بعضهم الى صنع تماثيل صغيرة ذات فاعلية وحيوية خارقتين – ثم يشعل النار فيها أو يخرقها ليصل بذلك الى جسم عدوه ، ومازال بعض العامة في عصرنا هذا يفعلونها . أية فاعلية هذه التي كانت التماثيل والأصنام تتمتع بها وتحتويها ؟

ويسوقنا هذا الى الاشارة لحيوية اللفظ وفاعلية الكلمات ،فالألفاظ لم تكن مجرد علامات لاخطر لها ، بل كان لها قيمة سحرية هي التي تفسر قوة الرقي واللعنات ، فالمصريون كانوا يصنعون تمائم على شكل مساند الرأس توضع مع الموتى ، نقش عليها فقرة من كتاب الموتى ( ضمن مئون الأهرام )معتقدين بفاعليتها في العالم الآخر ، أماحيوية اللفظ والكلمة عند عرب بابل فتتعدد فاعليتها ، فمنها ماكان لدرء الخطر عن الأطفال ، ومنها لدرء خطر الكسوف والخسوف ، ومنها ما يطهر من الذنوب والمعاصي ، وأخرى لوجع الرأس أو الأسنان أو العيون ولسع الحية ،بل منها ماهو لحفظ المباني والمدن والحقول ولطرد الأرواح الشريرة عامة .

وحيوية اللفظ عند عرب الجزيرة تتعدد فاعليتها أيضا ، وقد ارتبطت بسحر وفاعلية بعض الحجر والخرز عند النساء خاصة ، ومن ذلك فاعلية رقية الفارك زوجها اذا سافر عنها، فكانت تقول : ( بأفول القمر ، وظل الشجر شمال تشمله ، ودبور تدبره ، ونكباء تنكبه ) ثم ترمي في أثره بحصاة وروثة وبعرة ، وتقول ( حصاة حصت أثره ، ونواة نأت داره ، وروثة راثت خبره ، لفعنه ببعره ) ، طاقة هائلة للكلمة من خلال بنية الجملة والمستوى الصوتي الذي يوحي بقوة فاعليتها الكامنة في النماذج الاسطورية للرقية أو التميمة تلك الرقية أو التميمة التي تتمتع بحيوية مدمرة وفاعلية مهلكة ذكرتها بعضهن شعرا فقالت :

أتبعته اذ رحل العيس ضحى

بعد النواة روثة حيث انتوي

الروث للريث وللنأى النوى

وقالت أخرى مستقطبة دلالات الألفاظ في تصوير رؤيتها لهذه الفاعلية ، مستغلة التصور الخرافي للكون وأطراف الطبيعة ومفرداتها عند العرب :

نأت منك الديار فلا دنت

وراثت بك الأخبار والرجعات

وحصت لك الآثار بعد ظهورها

ولافارق الترحال منك شتات

وصحيح أن كيدهن عظيم ، لايفتأن يسخرن كل شيء للانتقام من الرجل الا اذا أحببنه ، وفي هذه الحال يستخدمن الفاعلية الايجابية للألفاظ فيرقين من أحببنه بخرزة ( الينجلب ) والاسم يوحي بسحر الكلمة التي تصحبها

هذه الرقية " أخذته باليتجلب ، فبلا يرم ولا يغب ، ولا يزل عند الطنب " هو سجن مؤبد اذن ، ان حاول الفكاك أو الهروب منه رمته بسهم فاعلية الالفاظ السلبية ، قائلة " ياكرار كريه ان أقبل فسريه ، وان أدبر فضريه ".

والخرزات ذات الحيوية والفاعلية ورقاها كثيرة متعددة الأغراض عندهم منها خرزة السلوانة التي تنسى العاشق حبه ، يقول أحدهم ممن سرت فيه فاعلية السلوانة :

سقوني سلوة فسلوت عنها
سقى الله المنية من سقاني

وتحاول المرأة المحبة ابطال حيوية السلوانة التي تبعد الرجل عنها بفاعلية خرزات أخرى تستعطف قلبه ، ومنها ( الهنمة ، الفطسة القبلة والدردبيس) ورقيتها " أخذته بالهنمة ، بالليل زوج وبالنهار أمة " بالخطورة المرأة التي خافت شاعرهم فقال مصورا كيدها :

جمعن من قبل لهن ورفطسة
والدردبيس تمائما في المنظم
فانقاد كل مشذب مرسي القوى
لحبالهن وكل جلد شيظم ( ٤٦)

ايجان جازم بفاعلية هذه الخرزات ورقاها السحرية بحيث انقاد اليها الرجال الأشداء وهي عملية تنطق بالأفكار الباطنة والخبرات الحياتية القديمة المعتمدة على اعتقاد مؤمن بالغوامض والغيبيات التي تؤلف في جملتها آلية الفكر الحضاري القديم .

هذا وهناك خرزة الكحلة التي تدفع الأذى والعين عن الأطفال ، وهكذا نصل الى رؤية هؤلاء ازاء حيوية الكلمات الفائقة ، تلك الحيوية التي جعلوها تحرك كل شيء حولهم ، وتتسرب لكل ظواهر الطبيعة ، سماوية وأرضية مادية ومعنوية ، وكلها تشير الى قوة أعلى تسير الكون بنظام دقيق وان انحرف فهمهم لطبيعة هذه القوة مع اقرارهم بالأصول الالهية ، أساس هذه الفاعلية والحيوية ، رغم كل تشويه مقصود أو غير مقصود ، وقد سطر الفن هذا كله ، راصدا الفكر القديم في بناء تركيبي لعب البعد الرمزي فيه دورا مهما ومؤثرا .

## الهوامـــــش

١- الفكر السياسي في العراق القديـــم، عبد الرضا الطعان ،ج : ١ / ٤٢ ، ٥٧ دار الشئون الثقافية ، بغـداد

٢- الأساطير ، دراسة حضارية مقارنـة، أحمد كمال زكي ،ص /٥٨ ،٥٩ ، ط ثانية ، بيروت ١٩٧٩.

٣- يراجع في ذلك ، حضارة مصـــر والشرق الأدنى القديم ، إبراهيـــم رزقانة ومحمد شكري وعبد المنعـم أبو بكر وغيرهم ص / ٤٠٥، حضـارة العرب ، مصطفى الرافعي ، ص /٧٨-٨٥ ط ـ ثالثة ، بيروت ١٩٨١ م خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنـى، فيليب حتي ،ص /٧٩ ، ط ـ ثانيـة ، بيروت ١٩٨٢ ، العصور القديمـة ، جيمس هنري برستد ، ص / ٦٩ ، ١٢٣ ١٢٤ ـ تعريب داود ، قربان ،بيروت ١٩٨٣ الحضارة المصرية جون ولسـون، ص / ٩٨ ، ترجمة أحمد فخـري، النهضة المصرية .

٤- الكون العميق ، علي الأمير، ص / ٢٧ وما بعدها ، ط ـ أولى ـ بغـداد، ١٩٨٦ ، مع الله في السماء ،أحمد زكي، ص / ١٤٥ وما بعدها ، بيـروت، الوثنية في الأدب الجاهلي ، عبـد الغني زيتوني ، ص /١١ ، دمشـق، ١٩٨٧ .

٥ ـ لسان العرب ، ابن منظور الانصاري، ج ، ١٤/٥ ، ط. مصورة عن طبعـة بولاق ، الدار المصرية للتأليف .

٦- بلوغ الأدب في معرفة أحوال العـرب، السيد محمود شكري الألوسـي، ج : ١٦٢/٢ بيروت ، مروج الذهـب ومعادن الجوهر للسعودي ، ج:١٢٦/٢ ، ط . رابعة ، مصر ١٩٦٤ في طريـق الميثولوجيا عند العرب،سليم الحوت، ص / ٨٠ ،ط : ثانية ، دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٧٩ ، البدء والتاريخ، أحمد بن سهيل البلخي ، المجلـد الأول ، ج : ١٧١/١ القاهرة، النجوم في الشعر العربي ، يحيى الأميـر، ص / ٥٧ ، ط . أولى ، بيروت ١٩٨٢.

٧- سورة النحل /٥٧ ، الصافات / ١٤٩ ، ١٥٠ الوثنية في الأدب الجاهلـي، ص / ١٥٠ .

٨- سورة النجم / ١٩ ـ ٢٢ .

٩- ديوانه ،ص / ١٠٤ ، ١٣٤ ، الشعـر الجاهلي ، قضاياه الفنية والموضوعية، ابراهيم عبد الرحمن محمد،ص / ٢٥٨ ، بيروت ١٩٨٠. ، المأثورات الشعبيـة، المجلد الرابع ،ص / ٤٥ ، الدوحـة، ١٩٨٦ .

١٠- ديوانها ،ص / ٦٣ دار صادر،بيروت، ديوانه ص/١٠ ،ط . ثالثة ،بيـروت، ديوانه ،ص/ ١٠ بيروت ١٩٦٨، شـرح المعلقات السبع للزوزني ، ص / ٣٥ ، بيروت ، الروائع في الأدب العربـي، يوسف خليف ،ج : ٨٥/١ الهيئـة المصرية العامة للكتاب ٩٨٣ ، كتـاب التعازي والمراثي لأبي العبـاس المبـرد ،ص / ٢٣ ،دمشق ١٩٧٦، شعـر الرثاء في العصر الجاهلي ، مصطفـى الشورى ،ص / ١٨٣ بيروت ١٩٨٣.

١١- ديوانه ، ص /٢١ ، ٥٢ المكتبـة الثقافية ، بيروت ، أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، اختيار الشمنتري ص / ٣٩٤ ،ط. أولى ، بيـروت، ١٩٨٢ ، بلوغ الأدب ،ج : ٢/ ٣١٨ ،

٣١٩ ،ج : ٣ / ٢٢٤ ، الغزل في العصر الجاهلي أحمد الحوفي ،ص ٣٤/ ٤٩ ، النجوم في الشعر العربي ، ص ٧٦ ، صبح الأعشى للقلقشندي ، ج : ١ / ٤٠٧ ، ديوان المعاني ، أبو هلال العسكري ،ج : ١ / ٢٤ .

١٢- خزانة الأدب للبغدادي ، المجلد الأول ،ص / ١٢١ ،ط . أولى ، ببروت ، نصوص الشرق الأدنى القديمة ، ج : ٦١/١ ، ٤١ ، تعريب عبد الحميد زايد ، هيئة الآثار المصرية ، ملاحم وأساطير من رأس شمرا ، أنيس فريحة ،ص ١٨٦ / ١٨٧ بيروت ١٩٨٠ .

١٣- انظر في ذلك : تاريخ حضارة اليمن القديم ، زيد بن علي عنان ، ص / ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، وما بعدها ط . أولى ، مصر ، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور ، أحمد سوسة ، عدة صفحات ومنها ٤١ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، الشرائع السابقة ،عبد الرحمن الدرويش ، معظم صفحاته ط . أولى ، الرياض .

١٤- الحج / ١٨ ، لقمان /٢٩ ، يس ٣٨ ، ٤٠ .

١٥- انظر : في طريق الميثولوجيا ، ص ٨٠ والملل والنحل ج : ٢ / ٦٥ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، الزمر/٠٣

١٦- الوثنية ، ص / ٣٧ ، ١٢٥ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، الاسطورة عند العرب ، حسين الحاج ،ص / ١٢٨ ، ١٤٧ ،ط. أولى ، بيروت ١٩٨٨ ،الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ، نصرت عبد الرحمن ،ص/١٢٥ ، ط. ثانية ، عمان . النجوم في الشعر العربي ، ص / ٧٦ .

١٧- دليل السماء والنجوم ، عبد الرحيم بدر ،ص ١٤٤ ، طرابلس لبنان النجوم والناس والذرة ، عبد العزيز عثمان ، ص ٢ ، ٢٠ مصر .

١٨- اليمن الخضراء مهد الحضارة ، محمد الأكوع الحوالي ،ص ٢٥ ومابعدها ط . ثانية ١٩٨٢ ، موسوعة الفلكلور شوقي عبد الحكيم ، ص ٧١٣ ط. أولى ٩٨٣ ،دراسات في تاريخ العرب محمد مهران ،ص / ١٤٧ الاسكندرية ، تاريخ حضارة اليمن ، ص ٤١ - ٦٧ ، القبائل العربية في مصر في القرون الأولى للهجرة عبد الله خورشيد ، ص / ٥ - ٣٣ مصر ١٩٦٧ .

١٩- الآداب القديمة وعلاقتها بتطور المجتمعات ، احسان سركيس ، ص / ١١١ ط . أولى ، بيروت ١٩٨٨ الحضارات لبيب عبد الساتر ،ص /٤٩ بيروت ١٩٨٣ .

٢٠- ديوان عنترة ،ص ١٩٠ ، من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ، عبد العزيز السلمان ، ص ٥٠٤ ،ط تاسعة الرياض ١٩٨٣ ،الشرق الأدنى القديم عبد العزيز صالح ، ج : ١ / ٣٠٨ ٣٣١ ،ط . ثانية ، القاهرة ١٩٧٣ ، صحيح البخاري ، ج : ٤ / ١٣١ .

٢١- عبد العزيز صالح ، ج : ٣١٠/١-٣١١ ، العرب واليهود في التاريخ ، أحمد سوسة ، ص ٧١ / غ و/ مقدمه ، ط . ثانية - دمشق ، عبقرية العربية في رؤية الانسان والحيوان ، لطفي عبد البديع ، ص /١٥٠ ، في طريق الميثولوجيا ، ص /٨٢ ، ٨٧ احسان سركيس ، ص / ٥٧ ، ديوان عبيد بن الأبرص ، ص / ٦٩ ، بيروت ١٩٦٤ ، الأمثال في النثر العربي القديم ، عبد المجيد عابدين ،ص /٢ ،ط. أولى دار مصر للحياة ، تاريخ سورية

القديم ، أحمد داود ،ص /٢٤٠، ٥٥١ ٥٦٢ ، ٥٦٥ ، ٥٦٧ ، ٥٧٠ ، ٥٨٠، ٦٠٠ ٨٠٩ ، ط ٠ أولى ١٩٨٦ ٠

٢٢- سركيس ، ص /١٣٣ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، في طريق الميثولوجيا ص ٩٢ ٠

٢٣- ملحمة جلجامش ، طه باقر، ص /١١٥ ١١٨ ، ١٩٨٠ ، بغداد ١٩٨٠ ، الآثار السورية ، مجموعة أبحاث لعدة مؤلفين ، ص /٦٩ ، ١٢١ ، ٣٥٢ترجمة نايف بللوز (فورفرتس ) للطباعة والنشر ، ملاحم وأساطير من الأدب السامي ، أنيس فريحة ص / ٣٤ ، ١١٧ ط ٠ ثانية ، دار النهار ، أوغاريت ، أجيال أديان ملاحم ، نسيب الخازن ، ص/٢١٢/٢٢٧ ، ط٠ أولى ،بيروت ملاحم وأساطير من رأس شمرا ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، ١١٠، ١٧٨ ، الحضارات السامية القديمة سبتينو موسكاتي ، ص ١٣٧ ، ١٩٤ ، ٢٥٧ ، الشعر الجاهلي ، ابراهيم محمد ، ص / ٤٣ ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي ، ج : ٦ / ٣٢٣ بيروت ١٩٧٠ ٠

٢٤- الاسراء /٤٤ ، الحشر /١ ومثلها الجمعة /١ ، التغابن /١ وغيرها ، الرمز الشعري عند الصوفية، عاطف نصر ،ص/ ٢٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١/، ط ٠ اولى ،بيروت ١٩٧٨ ، صحيح البخاري ، ج : ٤ / ٢٠٣ والعلات والضرائر واحدتها علة ، العنكبوت ٦١ ، السومريون ، صموئيل نوح كريمر ،ص /١٣٠ ، ١٣٢ ، الكويت ٠

٢٥- المأثورات ص /٤٥ ، بلوغ الادب ،ج : ١٢٦/٢ ، مع الله ص ١١١ ، شامي ص / ٥٩ ،دراسات في تاريخ العرب قبل الاسلام ، السيد عبد العزيز سالم ، ج : ١ / ٤١٠ الاسكندرية ، ملاحم من رأس شمرا ، ص / ٦٦ديوانه ص / ١٨٧ ، ديوانها ، ٦٣ ، ١٢٤، زيتوني ،ص / ٥٢ ، في طريق الميثولوجيا ٩٥ ، موسوعة الفولكلور والاساطير العربية ، شوقي عبد الحكيم ، ٧١ ،ط ٠ أولى ،بيروت ١٩٨٢ ، الصورة في الشعر العربي علي البطل ٤٤ ، ط ٠ ثانية ١٩٨١٠

٢٦- الأساطير ، أحمد كمال زكي ، ١٩٧ ، شامي ٥٥ ، معجم الفولكلور، عبد الحميد يونس ١٧٧ ،ط٠ اولى ، لبنان ١٩٨٣ ، عقائد مابعد الموت ، نائل حنون ٧٤ ، بغداد ١٩٧٨٠

٢٧- دفاع عن الفولكلور ، عبد الحميد يونس ٨٦ - ٩٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٩٧٣ ، شعر الرثاء ٣٨ ، الاسطورة ، حسين الحاج ٢٩ ، دليل السماء ، ٧٩ ، ٨٠ ،الكون ٥٧ ،سلسلة الموسوعة العلمية الحديثة، بيروت ١٩٨٥ ، شعراء السعودية المعاصرون ، احمد كمال زكي ١٨٣ ، ط ٠ أولى ، الرياض ، ١٩٨٣ الحياة الأدبية في العصر الجاهلي ، خفاجي ٢٤٥ ، ط ٠ أولى ، القاهرة ١٩٤٩٠

٢٨- في طريق الميثولوجيا ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٦ ، ٩١ ، ٢٤٨ ، ٤٨٥ موسوعة الفولكلور ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٥٧٩ من الاساطير العربية والخرافات ، مصطفى الجوزو ، ١٠٣ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ط ٠ أولى، بيروت ١٩٧٧ ، المحبرة محمد بن حبيب ٣١١ ، ٣١٥ ،دار الآفاق بيروت ، الوثنية ١٤٠ ، ١٧٣، ٣٨ ٠

٢٩- ملاحم من رأس شمرا ، ٧٩ ، ٦٢، ٦٥ ، ملحمة جلجامش ، ترجمة محمد نبيل نوفل ٢٥ ، المعارف بمصر حضارة العراق ، نخبة من الباحثين ج : ١٨٣/١ ، بغداد ١٩٨٥ ، السحر

والمجتمع، سامية الساعاتي ١٧ ط ٠ أولى ، الانجلو ١٩٨٢ ، مغامرة العقل الأولى ، فراس السواح ٢٨٨ – ٣١٧ ،ط ٠ السابعة ١٩٨٧ ، النجم ١٩–٢٢ ، عادات وتقاليد الشعوب القديمة ، فاضل عبد الواحد ١٨٣ ، بغداد ١٩٧٩ مصر والشرق الأدنى القديم ، نجيب ميخائيل ١٥٩ ، عقائد ٠٦٨.

٣٠– الفكر السياسي في العراق القديم عبد الرضا الطعان ، ج :١/ ٧٩ ، ٨٣ القبائل الثمودية والصفوية ، محمود الروسان ١٤٥ ، ط ٠ أولى الرياض ١٨٧ ٠

٣١– الاسراء /٤٤ ، الحشر/١ ، ٢٤ وغيرها ، النحل /٤٠ ، هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم ، عبد العليم خضر ، ٢٣٨ ، ط ٠ أولى ، جدة ١٩٨٢ ٠

٣٢– في طريق ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ١٠٠،شامي ٧١ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٨ شعراء السعودية ٢٦٠ ، ٢٦١ ، المعلقات ٤٦ ٠

٣٣– شامي ٨٠ ، ٨٨ ، ٤١ ، ١٧٢، ١٩٦ ، ١٩٨ ، الكون العميق ٢٢٩ – ٢٣٢ ،بلوغ ج : /٢٣٩ المفضليات ، المفضل الضبي ٢٦٣ ، بيروت :١٩٢٠ ، في طريق ٩٨ ، الصورة الفنية ١٤٨ ، الأنواء في مواسم العرب ، ابن قتيبة ١٣ ، ط أولى حيدر أباد ١٩٥٦ ، الاصمعيات ، ٨٩ ،ط رابعة القاهرة ، ديوان الأعشى ٦٨، بيروت ١٩٨٣ ٠

٣٤– عبقرية العربية ١٤٧ ، ١٦١، ١٦٤ ، الاداب القديمة ١٦٢، دليل السماء ٢٩١ ، الكون العميق ٣١ ، السحر ١٧ ، العراق القديم ، جورج رو ٤٥٨ ، بغداد ، الرمز الصوفي ١٢٦ ٠

٣٥– الشعر والموت ، فؤاد رفقة ٣١ ،٤٣ دار النهار ، بيروت ١٩٧٣ ، القيم الروحية في الشعر العربي ، ثريا ملحس ٢٣ ، ٣٣ ، الكتاب اللبناني، بيروت ، دراسات في تاريخ العرب ج : ١/ ٧٧

٣٦– الزهرة ، لأبي بكر محمد داود الظاهري، ج : ١/ ٣١ ،الزرقاء ١٩٨٥ ، شعر الصعاليك ، عبد الحليم حفني ١٠٦ القاهرة ١٩٨٣ ، عنترة ٢٩، ٢٤، ٦٤، شرح ديوان امرؤ القيس ، حسن السندوبي ٩٣، ١١٦ ، ١٨٠ ،ط رابعة مصر ١٩٥٩ ، اشعار الشعراء الست ٧١ ، عبقرية العربية ٢٠٢ ، ديوانا عروة بن الورد،السموأل ٣١، صادر بيروت ، ديوان أوس ١٥ ، ديوان عبيد بن الأبرص ٧٣ ، ٨٤ ، ١٣٥ ، شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ١٧٦ ، جمع مطاع الطرابيشي،ط ثانية دمشق ١٩٨٥ ديوان لبيد ٤٩ ، ١٠٩ معجم الفولكلور ٠٨٥.

٣٧– ملاحم من رأس شمرا ،٤٥ ، ٤٦، ٤٨ ، عالم الملائكة الأبرار ، عمر سليمان الأشقر ٨٠ ،ط رابعة ، الكويت، ١٩٨٥ ، البدء والتاريخ ، المجلد الأول ، ج : ١/ ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ج : ٢/ ٣٣ ، الرعد /١٢ ، البقرة ١٩ ، ٥٥ ، ١٦٤ ، النور /٤٣، النساء ١٥٣، ذاريات /٤٤ ، الفرقان / ٤٠ ، الشعراء/١٧٣ ، الاعراف / ٨٤ ، من معجزات ١٧ ، الحيوان للجاحظ ، ج : ٤/ ١٧٢ ، ط ٠ ثانية ، بيروت ، ١٩٧٨ ، بلوغ ج : ٢/ ٣٠١ ٠

٣٨– ملاحم من رأس شمرا ، ١٧٨ ، ٣٢٢ ، ١٦٥ ، أدونيس أو تموز ، جيمس فريزر ، ١٨ ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ،ط ، ثانية، بيروت ١٩٧٩ اساطير

شرقية ، كرم البستاني ١٢٩ ، ط ، أولى ١٩٤٤ ، دراسات في التاريخ ، انيس فريحة ٥١ ، ٥٤ ، بيروت ، ١٩٨٠ ، مغامرة العقل ٣٢١ ومابعدها ، مقدمة في ادب العراق القديم ، طه باقر ، ٣٥٢ بغداد ١٩٧٦ ، الشرق الادنى القديم ج : ٤٧٣/١ ، من الساميين الى العرب ، نسيب الخازن ، ٥٢ ، ٥٤ ، ١١٨ ، ١٣٧ ، بيروت ، ١٩٧٩ ملحمة جلجامش ٢٥٥ .

٣٩- دراسات ٤٢٣ ، في طريق الميثولوجيا ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٩٣ ، مغامرة ٣٦ ، ٢٩٢ ، الرمز الشعري ٤٢ حضارة العراق ، ج : ١٥٥/١ ، ٢٠٨ ، مقدمة في أدب العراق ١٢٢ ، في موكب الشمس ، أحمد بدوي ج : ٦٩/١ ط أولى ، مصر ١٩٤٦ ، مع الله ، ١١٠ ، الحيوان ، ج : ٥٣٧/٣ ، ديوان الخنساء ، ٤٠ ، ٤١ ، ١٢١ ، ديوان النابغة الذبياني ، ١٠٣ ، ديوان أوس ، ١٢١ ، ديوان لبيد ، ١٩٤ ، الروائع ج : ١ / ٧٥ الاصمعيات ، ٣٦ ، كتاب الموت ، تحقيق عبد اللطيف عاشور ، ١٧٧ ، القاهرة ، من معجزات النبي ، ٥٤ ، البدء والتاريخ ، المجلد الأول ج : ١٧١/١ ، فصلت /١١ ، هود/٤٤ المزمل ١٤ ، الزلزلة /٢ الدخان /٢٩ ، مريم ٩٠ ، الاسراء ٤٤ ، يونس / ٢٤ ، هود ٦١ ، فجر الضمير جيمس هنري برستد ، ٨٩ ، مراجعة عمر الاسكندري ، مصر ، ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ، ج : ٢٠/١ ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .

٤٠- لبنان في قيم تاريخه ، يوسف الحوراني ، ٧٥ ، ٧٦ ، بيروت ، لبيب ساتر ، ٨٥ ، مكة في عصر ماقبل الاسلام ، أحمد أبو الفضل ، ٧١ ، ط . ثانية ، الرياض ، ١٩٨٠ ، دراسات ( سالم ) ٤٥٨ ، ديوان الخنساء ، ٤١ ، ١١٢ ، ١٢٤ ، علي البطل ، ٢٥ ، الوشنية ٢٣١ ، من معجزات ٨٠ ، ٢٩ الانبياء / ٧٩ ، ١٨ ، الحج /١٨ ، النمل/٨٨ ، المزمل/١٤ ، الحشر /٢١ ، مريم /٩٠ ، احزاب ، ٧٢ ، عالم الملائكة ، ٧٩ ، ٨٠ ، البقرة / ٨٠ .

٤١- العصور القديمة ١٢٠ ، الحضارة المصرية ، جون ولسون ، ترجمة احمد فخري ، ٩٨ النهضة المصرية ، لبنان ٦٢ ، ٦٣ ، بلادنا فلسطين ، مصطفى الدباغ ، ج : ٤٩١/١ ، ط أولى ، بيروت ١٩٦٥ موسوعة الفولكلور ، ٤٧ ٦٦٥ ، الطبيعة في الشعر العربي ، نوري حمودي القيسي ، ٦٨ ط . أولى ، بيروت ١٩٧٠ ، مكة ، ٧٠ ، الوشنية ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٨٨ ، ١٣١ ، الاسطورة ، ١١٤ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، في طريق الميثولوجيا ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ الصورة في الشعر العربي ، ٤٤ ، ٦٧ ، ط ، ثانية ، دراسات ، ٤٠٨ ، عبد العزيز صالح ج : ١ /٣٥ ، ٤٧٣ المعلقات سيرة وتاريخا ، ٤٨ ، ١٩٨ ، ٢١٦ ، ط أولى ، ١٩٨٢ من الساميين الى العرب ، ٥٣ .

٤٢- الشورى ، ص /١٩٢ ، صحيح البخاري ، ج : ٩٣/٢ ، سبل السلام ، ج: ٥٣٩/٢ ، من معجزات النبي ٤ ، ٧ ، ١١ ، ١٧ ، الفقه على المذاهب الأربعة ، عبد الرحمن الحريري ، ج : ١ / ٥٠٧ البدء والتاريخ ، ج : ٣ / ١٠٩ .

٤٣- الحج/١٨ ، الرحمن /٦ ، العنكبوت ٦١ ، ومثلها لقمان /٢٥ ، الزمر/٨ ٣ الزخرف /٨٧ ، الزمر/٣ .

٤٤- ملاحم من رأس شمرا ، ٢٠٩ ، ٢٧٨ ، ملحمة جلجامش / باقر ١٢٥ ، ٢٠٧ ، الفكر السياسي ٦٣ ، ٧٤ - ٧٦ الاداب

القديمة /١٣١ ،الحضارة القديمة احمد كمال ، ص / ١٢٢ ، مجلة الجامعة المصرية .

٤٥- في طريق الميثولوجيا ، ٣٧ الحيوان، ج : ١٧٤/٤ ، الوثنية ٦٨،٥٨ ، ٧٢ ٧٣ ، ٧٤ ،١٢٣ الاسطورة / ٤٢ ، ٤٣ ديوان طرفة ٨٩ ، ايمان العرب في الجاهلية ، ابراهيم النجيرمي، ٣٧ ، حضارة العراق ١٩٩ .

٤٦- في طريق الميثولوجيا ،٣٣٠ الوثنية ٣٢ ، بلوغ الارب ج : ٢١٦/٢ ، ٣٣١ ، مكة ، ٧٩ ، الحضارة المصرية ، ولسون ، ٦٩ ، ٢٦٠ ، الأمثال في النثر العربي القديم ،٥ ، ١٨ ، دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم ، ج : ٥ / ٧٠ ، بين الفولكلور والثقافة الشعبية فوزي العنتيل ، ١٧٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ ، مقدمة طه باقر ٢٠٨،٢٠٩ ،ج : ٣ /٦ -٨ .


١- الآثار السورية ، مجموعة أبحاث أثرية تاريخية ، ترجمة نايف بللوز ، دار ( فور فزتس ) للطباعة والنشر .

٢- الآداب القديمة وعلاقتها بتطور المجتمعات ، احسان سركيس ، ط ، أولى ، بيروت ١٩٨٨ .

٣- أدونيس أو تموز ، جيمس فريزر، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، ط ثانية ، بيروت ١٩٧٩ .

٤- أساطير ، دراسة حضارية مقارنة ، أحمد كمال زكي ، ط . ثانية ، بيروت ١٩٧٩ .

٦- الاسطورة عند العرب في الجاهلية ، حسين الحاج حسن ،ط . أولى ، بيروت، ١٩٨٨ .

٧- أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، اختيار الأعلم الشنتمري ،ط. أولى، بيروت ١٩٨٢ .

٨- الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى ، عبد المجيد عابدين ط . أولى، دار مصر للطباعة .

٩- الأصمعيات ، عبد الملك بن قريب الاصمعي ، تحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط . رابعة القاهرة .

١٠- اوغاريت ، أجيال ، أديان ، ملاحم ، نسيب الخازن ، ط أولى ، بيروت، ١٩٦١ .

١١- ايمان العرب في الجاهلية ، لأبي اسحاق ابراهيم بن عبد الله النجيرمي ، الكاتب ، تحقيق محي الدين الخطيب ، ط . ثانية ،السلفية، ١٣٨٢ هـ .

١٢- البدء والتاريخ المنسوب لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي ، الثقافة الدينية ، القاهرة .

١٣- بلادنا فلسطين ، مصطفى الدباغ ط . أولى ، بيروت ١٩٦٥ .

١٤- بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، السيد محمود شكري الالوسي البغدادي ، بيروت .

١٥- بين الفولكلور والثقافة الشعبية ، فوزي العنتيل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨.

١٦- تاريخ حضارة اليمن القديم ، زيد بن علي عنان ، ط ٠ أولى،مصر ، ١٣٩٦ هـ ٠

١٧- تاريخ سورية القديم ، أحمد داود ، ط ٠ أولى ١٩٨٦٠

١٨- تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي ، بيروت ١٩٧٠ .

١٩- الحضارات ، لبيب عبد الساتر ، دار الشروق ، بيروت ١٩٨٣٠

٢٠- الحضارات السامية القديمة ، سبتينو موسكاتي ٠

٢١- حضارة العرب ، مصطفى الرافعي ط ٠ ثالثة ، بيروت ١٩٨١ .

٢٢- حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور ، احمد سوسة ، مكتبة الجامعة الأردنية ، مسلسل ١٨٦٠٩٧٠

٢٣- حضارة العراق ، نخبة من الباحثين ، الجزء الأول ، بغداد ١٩٨٥ .

٢٤- الحضارة القديمة ، احمد كمال ، مجلة الجامعة المصرية ٠

٢٥- حضارة مصر والشرق الأدنى، ابراهيم زرقانة ، محمد شكري ، عبد المنعم أبو بكر ٠

٢٦- الحضارة المصرية ، جون ولسون ترجمة أحمد فخري ، النهضة المصرية ٠

٢٧- الحياة الأدبية في العصر الجاهلي ، محمد عبد المنعم خفاجي ، ط أولى ، القاهرة ١٩٤٩ ٠

٢٨- الحيوان ، الجاحظ ، ط ثانية ،تحقيق فوزي عطوي ، بيروت ١٩٧٨ ٠

٢٩- خزانة الأدب ، عبد القادر البغدادي ط ٠ أولى ، بيروت ٠

٣٠- خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ، فيليب حتي ، ط ٠ ثانية ، بيروت ١٩٨٢ ٠

٣١- دراسات في تاريخ العرب القديم ، محمد بيومي مهران ، دار المعرفة الاسكندرية ٠

٣٢- دراسات في تاريخ العرب قبل الاسلام السيد عبد العزيز سالم ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ٠

٣٣- دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، الحضارة المصرية ، محمد بيومي مهران ، دار المعرفة ١٩٨٤٠

٣٤- دراسات في التاريخ ، أنيس فريحة ، دار النهار ، بيروت ١٩٨٠٠

٣٥- دليل السماء والنجوم ، عبد الرحيم بدر ، مؤسسة مصري للتوزيع ، طرابلس ، لبنان ٠

٣٦- ديوان الأعشى ، بيروت ١٩٨٣٠

٣٧- دفاع عن الفولكلور ، عبد الحميد يونس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ ٠

٣٨- ديوان أوس بن حجر ، ط ثالثة ، بيروت ١٩٧٩ ٠

٣٩- ديوان الخنساء ، دار صادر، بيروت .

٤٠- ديوان طرفة بن العبد ، المكتبة الثقافية ، بيروت .

٤١- ديوان عبيد بن الأبرص ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٤٠

٤٢- ديوان عنترة بن شداد ، تحقيق فوزي عطوي ،ط ، أولى ، بيروت ، ١٩٦٨ ٠

٤٣- ديوانا عروة بن الورد والسموأل ، دار صادر ، بيروت ٠

٤٤- ديوان قيس بن الخطيم ، ط ثانية ، بيروت ١٩٦٧ ٠

٤٥- ديوان لبيد بن ربيعة ، دار صادر ، بيروت ٠

٤٦- ديوان المعاني ، أبو هلال العسكري ، مكتبة المقدسي ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .

٤٧- ديوان المفضليات ، لأبي العباس المفضل بن محمد الضبي ، شرح أبي محمد القاسم بن الأنباري ، بيروت ،

١٩٢٠ .
٤٨- الرمز الشعري عند الصوفية ، عاطف جودة نصر ، ط . أولى ، بيروت .
٤٩- الروائع من الأدب العربي ، يوسف خليف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ .
٥٠- الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الظاهري ، تحقيق ابراهيم السامرائي ، الزرقاء ، الاردن ١٩٨٥ .
٥١- سبل الاسلام ، شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام ، محمد بن اسماعيل الأمير اليمني ، مكتبة عاطف / الازهر .
٥٢- السحر والمجتمع ، سامية الساعاتي ، ط . أولى ، الانجلو المصرية ١٩٨٢ .
٥٣- السومريون ، تاريخهم ، حضارتهم وخصائصهم ، صموئيل كريمر ، ترجمة فيصل الوائلي ، الكويت .
٥٤- الشرائع السابقة ، عبد الرحمن الدرويش ، ط . أولى ، الرياض ١٤٠٩هـ .
٥٥- شرح ديوان امرئ القيس ، حسن السندوبي ،ط . رابعة مصر ١٩٥٩ .
٥٦- شرح المعلقات السبع ، لأبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني ، مكتبة الحياة ، بيروت .
٥٧ - الشرق الأدنى القديم ، عبد العزيز صالح ، ط . ثانية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
٥٨- شعر الصعاليك ، منهجه وخصائصه ، عبد الحليم حفني ، القاهرة ١٩٨٧ .
٥٩- شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي جمع مطاع الطرابيشي ، ط . ثانية دمشق ١٩٨٥ .
٦٠- الشعر الجاهلي ، قضاياه الفنية والموضوعية ، ابراهيم محمد ، بيروت ، ١٩٨٠ .
٦١- شعر الرثاء في العصر الجاهلي ، مصطفى الشوري ، بيروت ١٩٨٣ .
٦٢- شعراء السعودية المعاصرون ، احمد كمال زكي ، ط أولى ، الرياض ، ١٩٨٣ .
٦٣- الشعر والموت ، فؤاد رفقة ،دارالنهار ، بيروت ١٩٧٣ .
٦٤- صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ابو العباس احمد بن علي القلقشندي ، القاهرة ١٩٦٣ .
٦٥- صحيح البخاري ، دار احياء التراث العربي ، بيروت .
٦٦- الصورة في الشعر العربي ، علي البطل ، ط. ثانية ، دار الاندلس ، ١٩٨١ .
٦٧- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث ، نصرت عبد الرحمن ، ط . ثانية ، الاردن ١٩٨٢ .
٦٨- الطبيعة في الشعر الجاهلي ، نوري حمودي القيسي ،ط . أولى ، بيروت ، ١٩٧٠ .
٦٩- عادات وتقاليد الشعوب القديمة ، فاضل عبد الواحد وعامر سليمان ، بغداد ١٩٧٩ .
٧٠- عالم الملائكة الابرار ، عمر الاشقر ط . رابعة ، الكويت ١٩٨٥ .
٧١- عبقرية العربية في رؤية الانسان والحيوان والسماء والكواكب ، لطفي عبد البديع ، ط ثانية ، جدة ١٩٨٦ .
٧٢- العرب واليهود في التاريخ ، أحمد سوسة ، ط . ثانية ، العربي للاعلان والنشر ، دمشق .
٧٣- العراق القديم ، جورج رو ، ترجمة حسين علوان ، مراجعة فيصل الوائلي ، الشئون الثقافية بغداد .
٧٤- العصور القديمة ، هنري برستد ، تعريب داود قربان ،بيروت ١٩٨٣ .

٧٥- عقائد مابعد الموت في حضارة وادي الرافدين القديمة ، نائل حنون ، بغداد ١٩٧٨ .

٧٦- الغزل في العصر الجاهلي ، احمد الحوفي ، ط ثالثة ، القاهرة .

٧٧- فجر الضمير ، جيمس هنري برستد ، ترجمة سليم حسن ، مراجعة عمر الاسكندري ،سلسلة الألف كتاب ، مصر .

٧٨- الفكر السياسي في العراق القديم عبد الرضا الطعان ، دار الشئون الثقافية ، بغداد .

٧٩- في طريق الميثولوجيا عند العرب ، محمود سليم الحوت ، ط . ثانية ، دار النهار ، بيروت ١٩٧٩ .

٨٠- في موكب الشمس ، احمد بدوي ، ط . أولى ، مصر ١٩٤٦ .

٨١- القبائل الثمودية والصفوية ، دراسة مقارنة ، محمود الروسان ،ط. أولى الرياض ١٩٨٧ .

٨٢- القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، عبد الله خورشيد البري ، دار الكاتب العربي ، مصر ،١٩٦٧ .

٨٣- القرآن الكريم .

٨٤- القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه حتى منتصف القرن العشرين ثريا ملحس ، دار الكتاب اللبناني بيروت .

٨٥- كتاب الأنواء في مواسم العرب ، ابو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري ، ط . أولى ،حيدر أباد ١٩٥٦ .

٨٦- كتاب التعازي والمراثي ، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد ، تحقيق محمد الديباجي ، دمشق ١٩٧٦ .

٨٧- كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ، عبد الرحمن الجزيري ، دار الفكر بيروت .

٨٨- كتاب الموت ، لأبي حامد الغزالي تحقيق عبد اللطيف عاشور ، مكتبة القرآن ، القاهرة .

٨٩- الكون ، كولين رونان ، سلسلة الموسوعة العلمية الحديثة ، بيروت ، ١٩٨٥ .

٩٠- الكون العميق ، علي الأمير ، ط أولى ، بغداد ١٩٨٦ .

٩١- لبنان في قيم تاريخه ، العهد الفنيقي ، يوسف الحوراني ، دار المشرق بيروت .

٩٢- لسان العرب ، ابن منظور الانصاري ، طبعه مصوره عن طبعة بولاق ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٩٣- المأثورات الشعبية ، دورية فصلية تصدر من مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية ، الدوحة ، قطر ، المجلد الرابع ١٩٨٦ .

٩٤- المحبر ، لأبي جعفر محمد بن حبيب ، دار الآفاق ، بيروت .

٩٥- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، ط. رابعة ، ١٩٦٤ . مصر .

٩٦- مصر والشرق الأدنى القديم ، نجيب ميخائيل ابراهيم ، الجامعة الاردنية ، مسلسل ٣٧٢٨٦ .

٩٧- معجم الفولكلور ،عبد الحميد يونس ، ط . أولى ، لبنان ١٩٨٣ .

٩٨- المعلقات سيرة وتارخا ، نجيب البهبيتي ، ط . أولى ، الدار البيضاء ١٩٨٢ .

٩٩- مع الله في السماء ، أحمد زكي بيروت .

١٠٠- مغامرة العقل الأولى ، فراس السواح ، ط . السابعة ، دمشق ، ١٩٨٧

١٠١- مقدمة في أدب العراق القديم .

١٠٢- طه باقر ، بغداد ١٩٧٦ .

١٠٢- مكة في عصر ماقبل الاسلام ، احمد ابو الفضل عوض الله ،ط ثانية ، الرياض ١٩٨٠ .

١٠٣- ملاحم وأساطير من الأدب السامي ، انيس فريحة ، ط. ثانية ، دار النهار .

١٠٤- ملاحم وأساطير من رأس شمرا ، انيس فريحة ، بيروت ١٩٨٠ .

١٠٥- ملحمة جلجامش ، تحقيق ، ن ،ك ساندرز ، ترجمة محمد نوفل وفاروق القاضي ، دار المعارف ، مصر .

١٠٦- ملحمة جلجامش ، طه باقر، بغداد ، ١٩٨٠ .

١٠٧- الملل والنحل ، لأبي الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق عبد العزيز الوكيل ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

١٠٨- من معجزات النبي ، عبد العزيز السلمان ، ط . تاسعة ، الرياض، ١٩٨٣ .

١٠٩- من الأساطير العربية والخرافات ، مصطفى الجوزو ، ط. أولى ، بيروت ، ١٩٧٧ .

١١٠- من الساميين الى العرب ، نسيب وهيبة الخازن ، بيروت ١٩٧٩ .

١١١- موسوعة الفولكلور والاساطير العربية ، شوقي عبد الحكيم ، ط . أولى ، بيروت ١٩٨٢ .

١١٢- النجوم في الشعر العربي القديم حتى أواخر العصر الأموي ، يحيى عبد الأمير شامي ، ط. أولى بيروت ١٩٨٢ .

١١٣- النجوم والناس والذرة ، عبد العزيز عثمان ، ترجمة هاينز هابر ، مكتبة الوعي العربي بالفجالة ، مصر .

١١٤- نصوص الشرق الأدنى القديمة ، تعريب عبد الحميد زايد ، الناشر جيمس بريتشارد ، هيئة الآثار المصرية .

١١٥- هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم ، عبد العليم خضر ، ط . أولى ، جدة ١٩٨٢ .

١١٦- الوثنية في الادب الجاهلي ، عبد الغني زيتوني ، دمشق ١٩٨٧ .

١١٧- اليمن الخضراء مهد الحضارة ، محمد الاكوع الحوالي ، ط . ثانية ١٩٨٢ .